

الفصل السابع

كتابات ابن أبي طي عن تاريخ الدولة الأيوبية في بلاد الشام

قدمنا في معظم أحداث الفصول السابقة عرضاً لجزء كبير من كتاب المؤرخ ابن أبي طي الحلبي الذي تناول فيه تاريخ السيرة الصلاحية، ونواصل في هذا الفصل ما تناوله هذا الكتاب عن تاريخ الدولة الأيوبية في بلاد الشام في عهد السلطان صلاح الدين، وقد اعتمدنا عليه في معظم أحداث الفصل، كما أمدنا «المقرئزي» في كتابه «المقفى الكبير» بمعلومة أوردها عن ابن أبي طي، وتناول فيها ما ذكره عن بشارة «القاضي محيى الدين بن زكى الدين» لصلاح الدين بقرب فتح القدس بعد سيطرته على حلب في عام ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م.

وقد أبرزت كتابات ابن أبي طي في هذا الفصل الجهود التي قام بها السلطان صلاح الدين حتى صار للدولة الأيوبية شأن كبير، وأخذت ما كان للدونة الأتابكية من قوة وسلطان، واستطاع بعد ذلك أن يحقق الكثير من الإنجازات التي لم يتمكن غيره من تحقيقها، واستغرق ذلك منه زمناً طويلاً، وقد أتاحت لنا الكتابات التي وصلتنا من تاريخ ابن أبي طي معرفة جانب من هذه الأحداث منذ عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م حتى عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م.

ووصلنا أيضاً من تاريخ الدولة الأيوبية بعض الأحداث المتعلقة بفترة حكم «الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين»، وأمدنا بها «عز الدين بن شداد» في كتابه «الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة»، عن كتاب «عقود الجواهر في سيرة الملك الظاهر» لابن أبي طي.

وقد عرضنا كتابات ابن أبي طي عن الدولة الأيوبية في الشام على حسب التسلسل

الحولى الذى ذكره، واشتملت أحداث كل عام على العديد من الموضوعات المختلفة.

أولا - عهد السلطان صلاح الدين (٥٧٠ - ٥٨٣ هـ / ١١٧٤ - ١١٨٧ م):

شهدت الدولة الأتابكية فى الشام بعد وفاة نور الدين محمود فى عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م، وولاية ابنه «الملك الصالح إسماعيل» - الذى كان لا يزال طفلا صغيرا - صراعا وتناحرا كبيرا بين أمراء نور الدين محمود فى دمشق وحلب من أجل الوصاية على ولده وتدبير أمور دولته، ولقد استشرع صلاح الدين الخنجر من نتائج هذا الصراع الوخيمة على وحدة الدولة الإسلامية التى كانت الدولة الأتابكية قد حققت جزءا كبيرا منها فقرر أن يكون له دور فى الحفاظ على هذه الوحدة وتدعيمها لتقف قوية فى مواجهة الإمارات الصليبية فى الشام. ولهذا توجه صلاح الدين من مصر إلى بلاد الشام فى عام ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م، وأثمرت جهوده خلال ثلاثة عشر عاما فى إقامة جبهة إسلامية موحدة، ونجح بقيادته لها فى عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ فى إعادة الكثير من البلاد الإسلامية التى كانت قد خضعت للحكم الصليبي لمدة قاربت قرنا من الزمان. وقد آمدنا ابن أبي طي الحلبي فيما وصلنا من كتاباته بتفاصيل كثير من هذه الأحداث وعرض فى مقدمتها:

اضطراب أحوال الدولة الأتابكية بعد وفاة نور الدين محمود (٥٦٩ - ٥٧٠ هـ /

١١٧٤ م):

توفى نور الدين محمود فى دمشق فى شوال عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م، وخلفه فى الحكم من بعده ولده الملك الصالح إسماعيل، وكان يبلغ من العمر إحدى عشرة سنة، فأطاعه أمراء والده وقام الأمير «شمس الدين بن المقدم» بتدبير دولته، وتولى له أيضا - حسب رواية العماد الأصفهاني - قيادة العساكر، وقرر الأمير شمس الدين بن المقدم منذ ذلك الوقت إبعاد صلاح الدين فى مصر عن مجريات الأمور فى بلاد الشام، خشية استقلاله بالأمر دونهم فى المستقبل، وقد ظهر موقفه هذا خلال الحوار الذى أورده «ابن الأثير» بينه وبين القاضى

«كمال الدين الشهرزوري»^(١).

وقد عرض ابن أبي طي في روايته أيضا أحوال الملك الصالح إسماعيل بعد وفاة والده، واتفق في معظم ما ذكره مع العماد الأصفهاني وابن الأثير، وأبرزت روايته سياسة الأمراء العدائية تجاه صلاح الدين في مصر، فقال: «لما مات نور الدين اجتمع أمراء دولته واتفقوا على أن يكونوا في خدمة الملك الصالح، ابن نور الدين، وكان يومئذ صبيا، وحلفوا له»^(٢) على منابذة الملك الناصر و قبض أصحابه الذين بالشام، ومصالحه الفرنج {و جعلوا}^(٣) «ابن المقدم شمس الدين» مقدم العساكر؛ وتم ذلك واستقر، وركب الملك الصالح بدمشق وخطب له»^(٤).

ولم تستقر الأحوال في الدولة الأتابكية عند هذا الحد، حيث واجهت بعد ذلك مملكة بيت المقدس الصليبية التي لم تضيع فرصة وفاة نور الدين محمود، فقامت قواتها

بحصار قلعة بانياس، التي تقع - كما ذكر «ابن الأثير» - ضمن أعمال دمشق، فراسلهم شمس الدين ابن المقدم، وعقد هدنة معهم^(٥)، وقد أوضح ابن أبي طي في روايته لهذا الحدث أن الغزو الصليبي كان يهدف الوصول إلى مدينة دمشق، ولهذا انجهدت قوات

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٢٦؛ أبو شامة: الروضتين، ج ١، ق ٢، ص ٥٨٦ (رواية العماد الأصفهاني). وانظر أيضا: ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ١-٣.

(٢) في طبعة: «دار الجليل». «و أجمعوا». وفي رأينا أن هذه الطبعة هي الأصح، لأن مجاهرة الأمراء أمام الملك الصالح بمعاداة صلاح الدين أمرا مبالغ فيه لصبغته بالصبغة الرسمية، ونكن من المتوقع أن «يجمعوا» فيما بينهم علي معاداته. (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ٢٣٣).

(٣) في طبعة: «دار الجليل». «علي يد». وفي رأينا أن هذه الطبعة هي الأصح لأن مصالحة الصليبيين تمت «علي يد» ابن المقدم. (المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٣٣).

(٤) المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٥٩٤ (طبعة دار الكتب).

(٥) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج ٤، ص ١٦٠؛ العماد الأصفهاني: سنا البرق، ص ٣٣ (اختصار البنداري)؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٢٧-١٢٨؛ ابن العديم: زبدة الخلب، ج ٣، ص ١٢؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢، ص ٧.

شمس الدين ابن المقدم إلى بانياس لحماية دمشق، وقد انفرد ابن أبي طي بهذا الإيضاح فقال: «وكانت الفرنج قد تحركت إلى قصد دمشق، فخرج ابن المقدم ونزل على بانياس في عساكر نور الدين^(١)، وراسل الفرنج في الهدنة، فأجابوه بعد أن قطعوا قطيعة على المسلمين، فعجل حملها إليهم. وتم أمر الصلح وعادت الفرنج إلى بلادها وابن المقدم إلى دمشق»^(٢).

وقد استنكر صلاح الدين عقد هذه الهدنة، وأوضح المؤرخ «العماد الأصفهاني» موقفه منها، ولاحظنا أن كتاباته كانت من أهم الكتابات التي اعتمد عليها كثير من المؤرخين من بعده^(٣)، ومن بينهم ابن أبي طي، الذي عرض نفس أسلوب روايته؛ إلى حد أن تطابق معه في بعض الكلمات فقال في شرح ذلك: «واتصل خبر هذه الهدنة بالملك الناصر، وكان قد خرج من مصر أربع مراحل، فأعظم أمرها وأكبره، واستصغر أمر أهل الشام وعلم ضعفهم. فراسل ابن المقدم وغيره من الأمراء بإنكار ذلك والتوبيخ عليه»^(٤).

ومن هؤلاء الأمراء الذين راسلهم صلاح الدين الأمير «شرف الدين ابن أبي عصرون»، أرسل إليه يبلغه رفضه عقد هذه الهدنة، وقد أورد المؤرخ «أبو شامة» عدة جمل من هذه الرسالة نقلا عن العماد الأصفهاني، كما عرض أيضا جزءا كبيرا من نفس الرسالة نقلا عن ابن أبي طي^(٥). وهذا يوضح لنا أن العماد الأصفهاني كان المصدر الأول الذي أورد نص هذه الرسالة، ومن الراجح أن ابن أبي طي أخذها عنه بعد ذلك.

(١) أورد ابن كثير نفس رأي ابن أبي طي في هذا الجزء. (البداية، ج ١٢، ص ٨٠٩).

(٢) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٩٤.

(٣) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص ٣٥؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٢٨؛ ابن

العديم: المصدر السابق، ج ٣، ص ١٣؛ أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٨٩ (رواية

العماد الأصفهاني)؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢، ص ٨؛ ابن كثير: المصدر السابق، ج ١٢،

ص ٨٠٩.

(٤) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٩٤.

(٥) المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٥٨٩ (رواية العماد)، ص ٥٩٤-٥٩٥ (رواية ابن أبي طي).

بدأ صلاح الدين الرسالة بتسجيل اعتراضه على عقد الهدنة من جانب طرف واحد من البلاد الخاضعة لسلطة الدولة الأتابكية، وأثر ذلك على وحدة باقي بلاد الدولة. قال ابن أبي طي: «وقال في كتابه إلى ابن أبي عسرون:» ورد الخبر بصلح بين الفرنج ودمشقيين وبقية بلاد المسلمين ما دخلت في العقد، ولا انتظمت في سلك هذا القصد و العدو لها واحد؛ وصرف مال الله الذي أعد لمغنم الطاعة، ومصصلحة الجماعة، في هذه المعصية المغضبة لله ولرسوله ولصالحى الأمة، وكان مذخورا لكشف الغمة، فصارعوننا؛ وأن اسارى من طبرية وفرسانها كانت وطأهم شديدة، وشوكتهم حديدة،

دُفعوا في القطيعة، وجعلوا إلى السلم السبب و الذريعة. فلما بلغنا هذا الخبر، وقفنا به بين الورود والصدور، وإن أتممتنا ظُنُّنا غير ما نريد، وإن قعدنا فالعدو من بقية الشغور التي لم تدخل في الهدنة غير بعيد، وإن قرقنا العساكر لدينا فاجتأعها بعد افتراقها شديدا»^(١).

ثم أشار صلاح الدين بعد ذلك في ختام رسالته إلى ابن أبي عسرون إلى الرسالة التي كان أرسلها إلى الأمير «شمس الدين علي» - وهو أكبر أخوة «بنو الداية» ولاة الأمور في حلب - وفيها أبلغه بعواقب عقد هذه الهدنة. قال ابن أبي طي: «فراينا أن سيرنا إلى حضرة الأمير شمس الدين أبي الحسن على وأخوته من يعرفهم قدر خطر هذا الارتباك، وأنه {أمر} {^(٢) ريبا عجز {فيه} {^(٣) عن الاستدراك، وأن العدو طالب لا يغفل، وجاد لا ينكل، وليث لا يضيع القرصة، مجد لا يميل إلى الرخصة. فإن كانت الجماعة ساخطين فيظهر أمارات السخط والتغيير ولا يمسك في الأول فيعجز عن الأخير، لاسيما ونحن نغار الله ونغير، ونقصد للمسلمين ما نجتمع به صلاح الرأي وصواب التدبير. وقد منعنا عساكرنا

(١) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٩٤-٥٩٥ (طبعة دار الكتب).

(٢) ساقطة من طبعة «دار الكتب». (المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٥٩٥) (طبعة دار الكتب)؛ ج ١، ص ٢٣٣ (طبعة دار الجليل).

(٣) ساقطة من طبعة «دار الكتب». (المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٥٩٥) (طبعة دار الكتب)؛ ج ١، ص ٢٣٣ (طبعة دار الجليل).

أن تفترق خوفاً أن يقصد العدو ناحية «حارم» بالمال الذى قويت به قوته، وثرته به ثروته، وانبسطت به خطوته؛ فإنه مادام يعلم أنا مجتمعون، وعلى طلبه مجتمعون، لا يمكنه أن يزائل مراكزه، ولا يبادر مناهزته»^(١).

ثم تناول ابن أبي طي بعد عرضه أحوال دمشق ومصر والعلاقات بينها بعد وفاة نور الدين محمود تطور الأمور في حلب.

كان الأمير «شمس الدين على بن الداية»، وهو أكبر بنو الداية، يقيم - كما ذكر العماد الأصفهاني - في قلعة حلب، وكانت بأيدي أخوته معظم الحصون والمعقل حول حلب^(٢). وقد أورد ابن أبي طي ما ذكره العماد عن أحوال بنى الداية، وأضاف تفاصيل أخرى عنهم وعن والى قلعة حلب فقال: «وكان متولى قلعة حلب» شاذبخت الخادم النوري»^(٣)، وكان «شمس الدين علي»، أخى «مجد الدين ابن الداية»، إليه أمور الجيش والديوان، وإلى أخيه «بدر الدين حسن»^(٤) الشحنية؛ وكان بيده ويد أخوته جميع المعقل التى حول

(١) المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٥٩٥ (طبعة دار الكتب).

(٢) المصدر السابق، ص ٣٧. وانظر أيضا: ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٢٧؛ ابن العديم:

المصدر السابق، ج ٣، ص ١٠ - ١١؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢، ص ٩، ٦.

(٣) هو جمال الدين شاذبخت الخادم الهندي: عتقه نور الدين محمود، وولاه قلعة حلب، لذا كان حريصاً بعد وفاته في عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م علي الحفاظ علي مملك ولده الملك الصالح إسماعيل في حلب، وظهر ذلك من كتابه خبر الوفاة عن كبار الأمراء والأعيان في حلب حتى حلفوا له علي ولائهم للملك الصالح. ومن الآثار التي تنسب إليه بحلب بناءه مدرسة لأتباع مذهب أبي حنيفة. (ابن العديم: زبدة الحلب، ج ٣، ص ٩ - ١٠).

(٤) بدر الدين حسن: أحد أخوة مجد الدين ابن الداية - شقيق نور الدين محمود في الرضاة - اشتغل إقطاعه في عهد نور الدين محمود علي عدة بلاد مثل: «حارم» و«إعزاز» و«عين تاب»، كما كان يتولى الشرطة في حلب. (العماد الأصفهاني: سنا البرق، ص ٣٧؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ٩).

حلب^(١)،^(٢).

ثم عرض ابن أبي طي تفاصيل الاضطرابات التي وقعت بين السنة والشيعية في حلب على أثر وصول خبر وفاة نور الدين محمود، وتعد روايته هذه من الروايات المهمة التي انفرد فيها بذكر أخبار حلب فقال: «فلما بلغ «عليا» موت نور الدين صعّد إلى القلعة، وكان «مُتَعَدًّا»^(٣)، واضطرب البلد، ثم سكنه

«ابن الخشاب»^(٤)، وكوتب ابن الخشاب من دمشق بحفظ البلد. وعول أولاد الداية على الاستيلاء على حلب، وحلف لهم جماعة من القلعيين والحليين وأنفذوا خلف «أبي الفضل بن الخشاب»، فامتنع من الصعود إليهم وترددت بينهم الرسالة؛ وتحزب الناس بحلب، {أهل} السنة مع بني الداية والشيعية مع ابن الخشاب؛ وجرت أسباب اقتضت أن أنزل حسن بن الداية جماعة من القلعيين وأهل الحاضرة وزحفوا إلى دار ابن الخشاب فملكوها ونهبوها، واختفى ابن الخشاب^(٥)،^(٦).

وقد وصلت أخبار هذه الاضطرابات إلى الأمراء في دمشق، فقررُوا - كما ذكر العماد

(١) اتفق ابن العديم مع ابن أبي طي في معظم ما أورده من تفاصيل في هذا الجزء. (زبدة الحلبي، ج ٣، ص ١٠-١١).

(٢) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٩٥.

(٣) كان شمس الدين علي مريضا بالقرص. (ابن العديم: زبدة الحلبي، ج ٣، ص ١٤).

(٤) هو القاضي أبو الفضل ابن الخشاب: كان رئيس حلب، ومقدم الشيعة بها، قُتل في حلب في المحرم عام ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م. (العماد: سنا البرق، ص ٧٤؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٣١؛ ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٤٩).

(٥) ساقطة من طبعة «دار الكتب». (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ق ٢، ص ٥٩٥) طبعة دار الكتب؛ ج ١، ص ٢٣٣ (طبعة دار الجليل).

(٦) اتفق ابن العديم مع ابن أبي طي فيما ذكره عن اضطراب أحوال حلب، وأضاف «ابن العديم» تفاصيل أخرى عن هذا الموضوع. (زبدة الحلبي، ج ٣، ص ١٥-١٧).

(٧) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٩٥ (طبعة دار الكتب).

الأصفهاني - إرسال الملك الصالح إسماعيل إلى حلب لحفظ الأمور بها، فسار معه جماعة من الأمراء في الثالث والعشرين من ذي الحجة عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م^(١)، وقد ذكر هذه الأحداث أيضا ابن أبي طي واتفق فيها مع العماد الأصفهاني فقال: «واتصلت هذه الأخبار بمن في دمشق فأخذوا الملك الصالح و ساروا إلى حلب، في الثالث والعشرين من ذي الحجة، و سار مع الملك الصالح «سعد الدين كمشكين»^(٢)

و«جُرديك» و«إسماعيل الخازن»، و«سابق الدين عثمان ابن الداية»، وقد وكلت الجماعة به وهو لا يعلم. و ساروا إلى حلب وخرج الناس إلى لقائهم^(٣).

وبعد وصول الملك الصالح إلى حلب، قرر من معه من الأمراء إنهاء الاضطرابات التي وقعت في البلدين بنى الداية وأنصارهم من السنة، والقاضي ابن الخشاب ومن انضم إليه من الشيعة، فقررُوا إبعاد بنى الداية أولا، ثم دبروا قتل القاضي ابن الخشاب، وقد أمدنا ابن أبي طي بتفاصيل مهمة عن هذا الموضوع انفرد بذكرها بين كثير من المؤرخين^(٤).

(١) المصدر السابق، ص ٧٣ - ٧٤. وانظر أيضا: ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٣٠ - ١٣١؛ ابن العديم: المصدر السابق، ج ٣، ص ١٣ - ١٤؛ أبو شامة: المصدر السابق، ص ٥٩١ - ٥٩٢ (رواية العماد)).

(٢) هو سعد الدين كمشكين: ولاء نور الدين محمود قلعة الموصل نيابة عنه، وبعد وفاة نور الدين محمود ترك الموصل واتجه إلى حلب، ثم سار إلى دمشق واتفق مع الأمراء هناك علي نقل الملك الصالح إلى حلب، وبعد وصوله إليها انفرد بتدبير مُلك الملك الصالح إسماعيل، وتوفي في عام ٥٧٣ هـ / ١١٧٨ م. (ابن الأثير: الكامل، ص ١٤٣؛ أبو شامة: الروضتين، ص ٥٩٢ (رواية العماد الأصفهاني)؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ٥، ١٠؛ ابن كثير: البداية، ج ١٢، ص ٨٠٩ - ٨١٠).

(٣) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٩٥ - ٥٩٦.

(٤) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص ٧٤؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٣١؛ ابن شداد: المصدر السابق، ص ٤٩؛ ابن العديم: المصدر السابق، ج ٣، ص ١٤ - ١٥؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٠.

قال ابن أبي طي عن موقف الأمراء في حلب من بنى الداية: «وكان «حسن» قدرتب في تلك الليلة جماعة من الحلبيين ليصبح ويصلبهم؛ فلما خرج إلى لقاء الملك الصالح ووقعت عينه عليه ترجّل ليخدم هو وجماعة من أصحابه، فتقدم «جرديك» وأخذ بيده، و شتمه و جذبه، فأركبه خلفه رديفاً، وقبض «سابق الدين» أخوه في الحال، وتخطفت أصحابهم جميعهم، واحتيط عليهم و ساروا مجذّين حتى سبقوا الخبر إلى القلعة و صعّدوا إليها، و قبضوا على «شمس الدين على بن الداية» من فراشه، و حمل إلى بين يدي الملك الصالح؛ فاستقبله أحد مماليك نور الدين المعروف «بالجفنية»، فركله برجله ركلة دحاه بها على وجهه، فانشقت جبهته. ثم صفّدوا جميعاً و حبسوا في جُب القلعة، و قبضوا على جميع الأجناد الذين حلفوا لأولاد الداية، وأخرجوا جميعاً من القلعة»^(١).

قال ابن أبي طي عن موقف الأمراء من القاضي ابن الخشاب: «ففى أولها (عام ٥٧٠ هـ) ضمن «القطب ابن العجمي {و}»^(٢) أبو صالح»^(٣) و «ابن أمين

الدولة»^(٤) بجرديك إن قتل ابن الخشاب ردّوا عليه جميع ما نهب له في دار ابن أمين الدولة. فدخل على الملك الصالح وتحدث معه وأخذ خاتمه أماناً لابن الخشاب، ونودي عليه، فحضر وركب إلى القلعة، فقتل وعلّق رأسه على أحد أبراج القلعة»^(٥)»^(٦).

(١) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٩٦ (طبعة دار الكتب).

(٢) إضافة في «طبعة دار الكتب». ونري أن حذف حرف الواو في «طبعة دار الجليل» أدق لأن «أبا صالح» تكمل اسم «ابن العجمي» وليس اسماً آخر. (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ق ٢، ص ٥٩٦ (طبعة دار الكتب)؛ ج ١، ص ٢٣٤ (طبعة دار الجليل)).

(٣) هو شهاب الدين أبو صالح عبد الرحيم بن العجمي: تولي الوزارة للملك الصالح إسماعيل بعد وفاة والده نور الدين محمود في عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م. واستمر بها حتى قتل في حلب في عام ٥٧٣ هـ / ١١٧٧ م. (ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٤٣؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج ٣، ص ١٠).

(٤) هو الشيخ أبو يعلى. (ابن العديم: زبدة الحلب، ص ١٥).

(٥) اتفق ابن العديم مع ما أورده ابن أبي طي عن تفاصيل مقتل القاضي ابن الخشاب. (المصدر نفسه، ص ١٨).

(٦) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٩٦.

وبعد استقرار الأحوال في حلب، انتقل المؤرخ «العماد الكاتب الأصفهاني» إلى الموصل للعمل في خدمة واليها «سيف الدين غازي»^(١)، وقد سجل العماد في كتابه تطورات الأمور في الموصل^(٢)، وأصبحت كتاباته عن هذه الأحداث مصدرا مهما لمعاصرتها؛ ولأنه كان أحد شهود العيان بها، ولهذا اعتمد ابن أبي طي على كتاباته وأوردها على لسانه وبنفس أسلوبه، فقال عن وصول العماد إلى الموصل: «وبقى الملك الصالح في قلعة حلب، ومضى «العماد الكاتب» إلى الموصل». قال^(٣): وعزمت على خدمة سيف الدين صاحبها وقد أخذ من بلاد الجزيرة إلى حد الفرات^(٤)

ثم أورد ابن أبي طي ما ذكره العماد الأصفهاني عن وصول «ابن العجمي» - وزير الملك الصالح إسماعيل - إلى الموصل، وأوضح أن مهامه تركزت أولا: في الإصلاح بين الملك الصالح وابن عمه الملك سيف الدين غازي الذي قام بالاستيلاء على معظم أملاك الملك الصالح في منطقة الجزيرة بعد وفاة والده، ثانيا: مناقشة مصير بني الداية^(٥)، وقد أورد ابن أبي طي ذلك على لسان العماد فقال: «ومضى إليه ابن العجمي للإصلاح، فأصلح بين {ابني العم}^(٦)، وعلق رهن أخوة مجد الدين في الاعتقال، وضيقوا عليهم في القيود والأغلال، وألزمهم بتسليم الحصون، وتقديم الرهون، إلى أن غضبوا دورهم، وخرّبوا معمرهم»^(٧).

(١) هو سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي: تولى الموصل بعد وفاة والده في عام ٥٦٥هـ / ١١٧٠م، وبعد وفاة نور الدين محمود في عام ٥٦٩هـ / ١١٧٤م استولى علي معظم بلاد الجزيرة، وتوفي في عام ٥٧٦هـ / ١١٨٠م. (النوري: نهاية الأرب، ج ٢٧، ص ١٨٠ - ١٨١، ١٨٣).

(٢) المصدر السابق، ص ٧٥.

(٣) المتحدث هنا «العماد الأصفهاني».

(٤) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٩٦ - ٥٩٧.

(٥) المصدر السابق، ص ٧٥ - ٧٦.

(٦) في طبعة «دار الجليل». «ابن العجمي». (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ٢٣٤).

(٧) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٩٧ (طبعة دار الكتب).

ثم أوضح العماد الأصفهاني تطور أحوال «الموفق ابن القيسراني» - وزير نور الدين محمود السابق^(١) - وموقفه من مجريات الأمور في دمشق وحلب ، وأخذ عنه ابن أبي طي هذا الإيضاح وأورده أيضا على لسان العماد فقال: «وكان الموفق خالد ابن القيسراني قد وصل، ونحن بدمشق، من مصر فلزم داره ولم يدخل مع القوم»^(٢).

هذا بالنسبة للأحوال في دمشق وحلب والموصل، أما بالنسبة لموقف صلاح الدين في مصر مما حدث في حلب مع بني الداية، فقد أوضح العماد الأصفهاني أنه عندما بلغه أمرهم استاء لما حدث معهم، وأعلن عن رغبته في تدبير أمور الملك الصالح إسماعيل، خشية منه على وحدة بلاد الدولة الأتابكية في الشام، وأعلن عن رغبته هذه في رسالة إلى الأمير «شمس الدين ابن المقدم» في دمشق^(٣). وقد أورد ابن أبي طي نفس رواية العماد الأصفهاني عن هذا الموضوع، وتطابقت روايته معه في بعض الكلمات، مما يشير إلى أن اعتماده عليه لا زال مستمرا فقال: «فأما صلاح الدين فإنه اعتقد أن ولد نور الدين يتولاه بعده أخوة مجد الدين، فلما جرى ما جرى ساء ذلك وقال: أنا أحق برعى العهود، والسعى المحمود، فإنه إن استمرت ولاية هؤلاء تفرقت الكلمة المجتمعمة، وضاعت المناهج المتسعة، وانفردت مصر عن الشام، وطمع أهل الكفر في بلاد الإسلام. وكتب إلى ابن المقدم ينكر ما أقدموا عليه من تفريق الكلمة، وكيف {اجتروا على أعضاء}^(٤) الدولة وأركانها، بل أهلها وإخوانها، وأنه يلزمه أمرهم وأمرها، ويضره ضرهم وضرها»^(٥).

فتلقى صلاح الدين ردا من الأمير شمس الدين ابن المقدم، اتهمه فيه بأنه يخطط للاستيلاء على مقاليد الأمور دونهم. وقد أورد العماد الأصفهاني نص هذه الرسالة،

(١) المصدر السابق، ص ٧٦. وانظر أيضا: ابن العديم: المصدر السابق، ج ٣، ص ١٠.

(٢) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٩٧.

(٣) المصدر السابق، ص ٧٦.

(٤) في طبعة «دار الجليل». «اجتروا على أعضاء» (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ٢٣٤).

(٥) المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٥٩٧ (طبعة دار الكتب).

وكذلك رد صلاح الدين عليها^(١)، وتطابقت كتابات ابن أبي طي هنا أيضا معه، فقال: «فكتب ابن المقدم إليه يردعه عن هذه العزيمة، ويقبح له استحسان هذه الشيمة، ويقول له: «لا يقال عنك إنك طمعت في بيت مَنْ غرسك، ورتاك وأمسك، وأضفي مشربك، و أضفي ملبسك، وأجلى سكونك للملك مصر وفي دسته أجلسك، فما يليق {بمالك}»^(٢)، ومحاسن أخلاقك وخلالك غير فضلك وأفضالك. فكتب إليه صلاح الدين بالإنشاء الفاضل: «إننا لا نؤثر للإسلام وأهله إلا ما جمع شملهم وألف كلمتهم، ولليت الأتابكي أعلاه الله تعالى إلا ما حفظ أصله وفرعه، ودفع ضره وجلب نفعه؛ فالوفاء إنها يكون بعد الوفاة، والمحبة إنها تظهر آثارها عند تكاثر أطباع العداة وبالجملة إنا في واد، والظانئون بنا ظن السوء في واد، ولنا من الصلّاح مراد، ولمن يبعثنا عنه مراد، ولا يقال لمن طلب الصلّاح إنك قاذح، ولمن ألقى السلاح إنك جارح»^(٣).

هكذا كانت أحوال الدولة الأتابكية بعد وفاة نور الدين محمود كما وصفها المؤرخ ابن أبي طي فيما وصلنا من كتاباته عنها، وقد اتضح لنا من خلال مقارنة كتاباته مع غيره من المؤرخين اعتماده في كثير من هذه الأحداث على كتابات العماد الأصفهاني، خاصة ما أورده عن العلاقات بين صلاح الدين في مصر والأمراء في دمشق ومراسلاته معهم، وكان ابن أبي طي قد صرح باعتماده على كتاباته عند انتقال العماد إلى الموصل، وأخذ عنه الأحداث التي كان شاهدا عيان لها.

اهتم ابن أبي طي أيضا في هذه الموضوع بذكر الرسائل المتبادلة بين صلاح الدين والأمراء في دمشق، وانفرد بجزء كبير من رسالة صلاح الدين إلى شرف الدين ابن أبي عسرون. كما أمدنا ببعض المعلومات المهمة عن الأحوال في حلب، واحتلت كتاباته عنها موقع الصدارة بين من لحقه من المؤرخين الذين أفردوا كتباً لدراسة تاريخ حلب، خاصة

(١) المصدر السابق، ص ٧٦.

(٢) في طبعة «دار الجليل». «بحالك». (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ٢٣٤).

(٣) المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٥٩٧-٥٩٨. (طبعة دار الكتب).

ما أورده عن الاضطرابات بين السنة والشيعه، وأحداث القبض على بنى الداية.

توسعات صلاح الدين في الشام (٥٧٠-٥٧٩ هـ / ١١٧٤-١١٨٣ م):

أوضحنا فيما سبق ما ذكره ابن أبي طي عن ردود فعل صلاح الدين في مصر تجاه ما حدث من الأمراء النورية في دمشق وحلب بعد وفاة نور الدين محمود، وكيف كان رأيه مخالفا لمعظم القرارات التي اتخذوها، لما كان لها من أثر على تفكك وحدة الدولة الأتابكية؛ ولهذا قرر صلاح الدين أن يقوم بدور لحماية أملاك الملك الصالح إسماعيل، فخرج من مصر إلى بلاد الشام في عام ٥٧٠ هـ / ١١٧٤-١١٧٥ م، وشهد هذا العام الكثير من انتصاراته هناك وبسط سيطرته على العديد من المدن، وكان أولها:

مدينة دمشق:

وقد شجعه على ذلك وصول رسل بعض الأمراء في الشام لدعوته. فذكر «العماد الأصفهاني» أنه جاءته رسل أمير بلدة «بُضْرِي»، وأيضا راسله الأمير «شمس الدين ابن المقدم» أمير دمشق وأظهر رغبته في التنازل عنها له. وقد أرجع «ابن الأثير» سبب ذلك إلى خشية ابن المقدم من وقوع دمشق في أيدي «سعد الدين كمشتكين» القائم بتدبير دولة الملك الصالح إسماعيل في حلب هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى خوفا من أن يصير له مثلها حدث مع بنى الداية في حلب^(١).

أما بالنسبة لابن أبي طي فقد أورد في روايته الآراء التي قبلت حول الأسباب التي دفعت صلاح الدين نحو دمشق، وأوضح أن معظمها كان يتعلق بشخصية «شمس الدين ابن المقدم» أمير دمشق ونتائج سياسته. فقال: «بلغ السلطان أن ابن المقدم نقض عهد الملك

(١) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص ٤٨١؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٣١. وانظر أيضا: ابن شداد: المصدر السابق، ص ٥٠؛ ابن العديم: المصدر السابق، ج ٣، ص ١٩-٢٠؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٩؛ ابن كثير: المصدر السابق، ج ١٢، ص ٨١٣.

الصالح، وهو كان السبب في خروج سيف الدين صاحب الموصل واستيلائه على البلاد الشرقية ومضايقته للملك الصالح في مملكه»^(١).

ولعل صلاح الدين حمل ابن المقدم مسئولية ضياع معظم منطقة «الجزيرة الفراتية» (المعروفة بالبلاد الشرقية) من أملاك الملك الصالح إسماعيل، لأنه رفض تدخله في أمور الملك الصالح كما ذكرنا من قبل. حيث أوضح «ابن الأثير» أن صلاح الدين راسل

الملك الصالح، وبمعنى أدق راسل «شمس الدين ابن المقدم» في دمشق، بعد غزو سيف الدين للموصل معاتباً له لأنه لم يعلمه: «بقصد سيف الدين بلاده ليحضر في خدمته ويكشف سيف الدين»^(٢).

ثم عرض ابن أبي طي الأسباب التي كانت وراء سيطرة صلاح الدين على دمشق، واتفق في أولها مع ما ذكره العماد الأصفهاني وابن الأثير عن دعوة شمس الدين ابن المقدم له، وانفرد بباقي الأسباب، ويتفسير دعوة ابن المقدم له فقال: «وقيل إن ابن المقدم كاتب السلطان ودعاه إلى الخروج. وقيل إنما خرج إلى الشام خوفاً من حركة تنشأ من جانب الفرنج بسبب اختلاف أمراء الشام وشغل بعضهم ببعض. ويجواب بمضّ ورد من ابن المقدم {إليه}»^(٣). ولما تيقن ابن المقدم خروج السلطان إلى جهة دمشق أشفق من ذلك واستدرك ما بدا منه، وتذلل له، ووعدته تسليم دمشق إليه»^(٤).

على أية حال انجبه صلاح الدين إلى دمشق، وواجهه بعض المعارضة من جانب والي القلعة بها، ثم أحكم سيطرته عليها في آخر ربيع الأول عام ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م، وأعلن ولاءه للملك الصالح إسماعيل من خلال المظاهر الدالة على ذلك من إقامة الخطبة والسكة

(١) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦٠٥.

(٢) المصدر السابق، ج ٩، ص ١٢٦.

(٣) ساقطة من طبعة «دار الجليل». (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ٢٣٧).

(٤) المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٦٠٥ (طبعة دار الكتب).

ثم قام صلاح الدين بإعادة الأمور في دمشق إلى ما كانت عليه في عهد نور الدين محمود، وقد عرض ابن أبي طي السمات العامة لسياسته بها، وأوضح أنها اتسمت بالتسامح فقال: «ولما حصل على دمشق وقلعتها، واستوطن بقمعتها، نشر علم العدل والإحسان، وعفى آثار الظلم والعدوان، وأبطل ما كان الولاية استجدوه بعد موت نور الدين من القبائح والمنكرات، والمؤن والضرائب المحرمات^(٢)»^(٣).

ولقد أثار سيطرة صلاح الدين على دمشق الأمراء في حلب، فأرسلوا إليه الأمير «قطب الدين ينال بن حسان»^(٤) برسالة شديدة اللهجة. وكان «العماد الأصفهاني» قد ذكر هذه الرسالة ورد صلاح الدين عليها، ولكن روايته وصلتنا مختصرة^(٥) بالمقارنة بما أورده ابن أبي طي، وهذا أضفى على كتاباته في هذا الموضوع أهمية كبيرة.

قال ابن أبي طي: «لما اتصل بمن في حلب حصول دمشق للملك الناصر وميل الناس إليه، وانعكافهم عليه، خافوا وأشفقوا وأجمعوا على مراسلته، فحملوا «قطب الدين ينال بن حسان» رسالة أَرعدوا فيها وأبرقوا، وقالوا له: «هذه السيوف التي ملكتك مصر بأيدينا، و الرماح التي حوت بها قصور المصريين على أكتافنا، والرّجال التي ردت عنك تلك العساكر هي تردّك، وعمّا تصديت له تصدّك؛ وأنت فقد تعدّيت طورك، وتجاوزت حدّك، وأنت

(١) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص ٨٢؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٣١؛ ابن العديم: المصدر السابق، ج ٣، ص ١٩ - ٢٠؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٩ - ٢٠.

(٢) اتفق «ابن كثير» و«المقرئزي» مع رواية ابن أبي طي في هذا الجزء. انظر: (ابن كثير: البداية، ج ١٢، ص ٨١٣؛ المقرئزي: السلوك، ج ١، ق ١، ص ٥٨).

(٣) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦٠٥.

(٤) هو قطب الدين ينال بن حسان: كان واليا على «منبج»، وألّت إليه بعد وفاة والده الأمير حسان في عام ٥٦٢ هـ / ١١٦٧ م. (ابن العديم: زبدة الحلب، ج ٢، ص ٣٢٤ - ٣٢٥).

(٥) المصدر السابق، ص ٨٢؛ أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦١٢ - ٦١٣ (رواية العماد) طبعة دار الكتب؛ الختلي: شفاء القلوب، ص ١٠٨).

أحد غلمان نور الدين ومن يجب عليه حفظه في ولده»^(١).

ثم قال ابن أبي طي عن موقف السلطان صلاح الدين من هذه الرسالة: «ولما بلغ السلطان وُرُود ابن حسان عليه رسولا تلقاه بموكبه وبنفسه، وبالف في إكرامه والإحسان إليه؛ ثم أحضره بعد «ثالثة» لسإاع الرسالة منه. فلما فاه ابن حسان بتلك الشَّقَاشِق الباطلة وقعقع بتلك التمويصات العاطلة، لم يُعره السلطان، رحمه الله، طرفا ولا سمعا، ولا رد عليه خفضا ولا رفعا، بل ضرب عنه صفحا و تقاضيا، وترك جوابه إحسانا وتجاфия، وجرى في ميدان أريجته، واستن في سنن مروءته، وخاطبه بكلام لطيف رقيق، وقال له: يا هذا اعلم أنني وصلت إلى الشام، لجمع كلمة الإسلام، و تهذيب الأمور، و حياة الجمهور، وسد الثغور، وتربية ولد نور الدين، وكف عادية المعتدين»^(٢).

ثم أورد ابن أبي طي رد الأمير حسان على ما ذكره صلاح الدين فقال: «فقال له ابن حسان: إنك إنما وردت لأخذ الملك لنفسك، ونحن لا نطاوعك على ذلك، ودون ما ترومه خراط القتاد، وفنت الأكباد وأيتام الأولاد». {فتبسم}^(٣) السلطان لمقاله،

وتزايد في احتماله وأومى إلى رجاله بإقامته من بين يديه بعد أن كاد يسطو عليه»^(٤)

ثم انجبه صلاح الدين بعد ذلك نحو مدينتي:

حمص وحماة:

سار صلاح الدين إلى حمص في شهر جمادى الأولى عام ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م، وتمكنت

(١) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦٠٧.

(٢) المصدر نفسه والصفحة.

(٣) في طبعة «دار الجليل» «فلم يلتفت»، ونعتقد أن هذا المعنى هو الأصح. (أبو شامة: الروضتين، ج

١، ص ٢٣٧).

(٤) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦٠٧ (طبعة دار الكتب).

قواته من السيطرة على المدينة، ثم غادرها بعدما ترك بها - كما ذكر «العماد الأصفهاني» - فرقة من قواته تحاصر القلعة، ثم اتجه إلى حماة في الشهر التالي، وأحكم سيطرته أيضا على المدينة، ثم راسل واليها «عز الدين جورديك» في أمر تسليم القلعة، فوافق على تسليمها بعدما أقنعه صلاح الدين - حسب ما رواه «ابن الأثير» - بأنه يهدف من ذلك حفظ بلاد الملك الصالح وطاعته، ثم أرسله صلاح الدين إلى الأمراء في حلب ليوضح لهم ذلك^(١).

ولم تختلف رواية ابن أبي طي عن هذا الموضوع عما رواه العماد الأصفهاني وابن الأثير، وأضاف بعض التفاصيل الأخرى حول اجتماع صلاح الدين مع الأمير عز الدين جورديك، فقال: «ونادى في عساكره بالاستعداد لقصد الشام الأسفل، ورحل متوجها إلى حمص فتسلم البلد، وقاتل القلعة ولم ير تضييع الزمان عليها، فوكل بها من يحصرها؛ ورحل إلى جهة حماة، فلما وصل إلى «الرُستَن»^(٢) خرج صاحبها عز الدين جورديك وأمر من فيها من العسكر بطاعة أخيه «شمس الدين علي» واتباع أمره. وسار جورديك حتى لقي السلطان واجتمع به بالرُستَن وأقام عنده يوما وليلة وظهر من نتيجة اجتماعه به أنه سلم إليه حماة و سألته أن يكون السفير بينه وبين حلب فأجابته السلطان إلى مراده؛ وسار إلى حلب وبقي أخو جورديك بقلعة حماة»^(٣).

ثم عرض ابن أبي طي أحداث لقاء عز الدين جورديك مع الأمراء في حلب، وتعد روايته عن هذا الموضوع من الروايات المهمة التي ذكرها، وتمثل أهمية روايته في

انفراده بذكر ما جاء بها من تفاصيل تطور أحوال عز الدين جورديك في حلب والقاء

(١) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص ٨٣؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٣١-١٣٢.

وانظر أيضا: ابن العديم: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٠-٢١؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٢-٢٣؛ النويري: المصدر السابق، ج ٢٨، ص ٣٧٥؛ الخنيلي: المصدر السابق، ص ١٠٩.

(٢) الرُستَن: بليدة علي نهر العاصي بين حماة وحلب. (ياقوت: معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٣).

(٣) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦٠٧-٦٠٨.

القبض عليه، وكان ابن الأثير وبعض المؤرخين قد أشار فقط إلى خبر القبض عليه^(١).

قال ابن أبي طي عن أحداث القبض على عز الدين جورديك وإيداعه مع بني الداية في نفس السجن: «وسار جرديك إلى حلب وهو ظان أنه قد فعل شيئاً وحصل عند من يحلب يدا، فاجتمع بالأمرء والملك الصالح، و أشار عليهم بمصالحة الملك الناصر؛ فآتمه الأمرء بالمخامرة، وردوا مشورته، و أشاروا بقبضه؛ فامتنع الملك الصالح. ولج «سعد الدين كمشتكين» في القبض عليه، فقبض وثقل بالحديد، وأخذ بالعذاب الشديد، وحمل إلى الجب الذي فيه أولاد الداية»^(٢).

ثم قال ابن أبي طي عن علاقة جورديك مع بني الداية في السجن، خاصة بعد أن كان قد قام بدور في إلقاء القبض عليهم من قبل: «ولما قدم جرديك وشد في وسطه الحبل وأذلى إلى الجب وأحسن به أولاد الداية قام إليه منهم «حسن» و شتمه أقيح شتم، وسبه الآم سب، و حلف بالله إن أنزل إليهم ليقتلته فامتنعوا من تدليته، فأعلم «سعد الدين كمشتكين» فحضر إلى الجب و صاح على «حسن» و شتمه وتوعدده، فسكن حسن وأمسك. وأنزل جرديك الجب، فكان عند أولاد الداية، وأسمعه حسن كل مكروه»^(٣).

ثم ذكر ابن أبي طي بعد ذلك أثر القبض على بني الداية وعز الدين جورديك على والده، خاصة بعد أن كانوا - كما سيظهر من روايته - قد لعبوا دوراً مهماً من قبل مع نور الدين محمود في إجراءاته المتشددة التي اتبعتها مع زعماء الشيعة في حلب في عام ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م. وانفرد بهذه الإشارة عن دورهم في تلك الإجراءات. فقال: «وكتب أبي (إلى حلب)»^(٤) حين اتصل به

(١) المصدر السابق، ج ٩، ص ١٣٢. وانظر أيضاً: ابن العديم: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢١؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٣؛ المقرئ: المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٥٩.

(٢) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦٠٨.

(٣) المصدر نفسه والصفحة.

(٤) ماقطة من طبعة «دار الكتب» (المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٦٠٨ (دار الكتب)؛ ج ١، ص

٢٣٨ (دار الجليل).

به قبض أولاد الداية وجرديك، وكانوا تعصبوا عليه حتى نفاه نور الدين من حلب قصيدة منها:

بُنُو فلانة أعوان الضلالة قد قضى بلذم الأفلاك والقدر
وأصبحوا بعد عز الملك في صنف وقعر مظلمة يغشى لها البصر
وجرد الدهر في جرديك عزمته والدهر لا ملجأ منه ولا وزر^(١)

ثم تسلم صلاح الدين بعد ذلك قلعة حماة من أخى جورديك، وكان سلمها إليه - كما ذكر «ابن الأثير» - بعد علمه بخبر القبض على أخيه في حلب^(٢)، وقد أضاف ابن أبي طي بعض التفاصيل الأخرى عن الإجراءات التي اتخذها صلاح الدين في حماة فقال: «ولم يزل السلطان مقبياً على الرّستن، ثم طال عليه الأمر، فسار إلى جباب التركمان، فلقية أحد غلمان جرديك وأخبره بما جرى على جرديك من الاعتقال والقهر، فرحل السلطان من ساعته عائداً إلى حماة، وطلب من أخى جرديك تسليم حماة إليه، وأخبره بما جرى على أخيه، ففعل؛ وصعد السلطان إلى قلعة حماة واعتبر أحوالها، وولأها

«مبارز الدين على بن أبي الفوارس» وذلك مستهل جمادى الآخرة^(٣).

حصار صلاح الدين حلب (الحصار الأول):

واصل صلاح الدين سيره بعد ذلك نحو حلب، ودرب حصاره حولها في ثالث جمادى الآخرة عام ٥٧٠ هـ / ١١٧٥ م، حسب رواية العماد الأصفهاني^(٤)، واتفق ابن أبي

(١) المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٦٠٨ (طبعة دار الكتب).

(٢) المصدر السابق، ج ٩، ص ١٣٢. وانظر أيضاً: ابن العديم: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢١؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٢-٢٣؛ النويري: المصدر السابق، ج ٢٨، ص ٣٧٥؛ الخنيلي: المصدر السابق، ص ١٠٩.

(٣) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦٠٨-٦٠٩.

(٤) المصدر السابق، ص ٨٣؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٣٢؛ ابن العديم: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢١؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٣.

طى مع العماد في هذا التاريخ، وانفرد بتحديد الأماكن التي شملها الحصار، وتعكس روايته هنا أحد سمات منهجه في جمع التفاصيل الدقيقة للأماكن التي تشهدها الأحداث التي يكتب عنها فقال: «و سار السلطان إلى حلب ونزل على أنف «جبل جوشن» فوق «مشهد الدكة» ثالث {جمادى}»^(١) وامتدت عساكره إلى «الحناقية» وإلى «السعدي». وكان من بحلب يظنون أن السلطان لا يقدم عليهم، فلم يرعهم إلا وعساكره قد نازلت حلب، و{خيمته}^(٢) تضرب على جبل جوشن، وأعلامه قد نشرت»^(٣).

وقد صمد الأمراء في حلب أمام الحصار، واتبعوا في ذلك كل الأساليب الممكنة، فلجأوا إلى أهل حلب، وعهدوا إلى «الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود»

بمهمة كسب ولائهم، فألقى عليهم خطاباً حثهم فيه على طاعته وحفظ البلد، وقد عرض «ابن الأثير» جزءاً من هذا الخطاب^(٤)، وانفرد ابن أبي طي بمزيد من التفاصيل الأخرى حول ردود فعل الأمراء في حلب من الحصار، وما اتخذوه من إجراءات لضمان بقاء سيظرتهم على أهل حلب.

قال ابن أبي طي: «فخافوا من الحلبيين أن يسلموا البلد كما فعل أهل دمشق، فأرادوا تطيب قلوب العامة، فأشير على «ابن نور الدين» أن يجمعهم في الميدان ويقبل عليهم بنفسه ويخاطبهم بلسانه أنهم الوزير والملجأ. فأمر أن ينادى باجتماع الناس إلى ميدان باب العراق، فاجتمعوا حتى غصّ الميدان بالناس، فنزل «الصالح» من «باب الدرجة» وصعد من الخندق، ووقف في رأس الميدان من الشمال وقال لهم: «يا أهل حلب أنا ربيكم ونزيلكم، واللجوء إليكم كبيركم عندى بمنزلة الأب، وشابكم عندى بمنزلة الأخ، وصغيركم عندى مجل مجل

(١) في طبعة «دار الجليل». «الشهر». (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ٢٣٨).

(٢) في طبعة «دار الجليل». «خيمه». (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ٢٣٨).

(٣) المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٦٠٩ (طبعة دار الكتب).

(٤) المصدر السابق، ج ٩، ص ١٣٢. وانظر أيضاً: ابن العديم: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢١؛ ابن

واصل: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٣.

الولد». قال: وخنقته العبرة، وسبقته الدمعة، وعلا نشيجه؛ فافتن الناس وصاحوا صيحة واحدة ورموا بعمائمهم، وضجوا بالبكاء والوعويل، وقالوا: نحن عبيدك وعبيد أبيك، نقاتل بين يديك، ونبذل أموالنا وأنفسنا لك؛ وأقبلوا على الدعاء له والترحم على أبيه^(١).

وقد استغل الشيعة في حلب الحصار، وطالبوا الملك الصالح إسماعيل بإعادة العديد من شعائهم التي أبطلها والده منذ عام ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م، فوافق على كل شروطهم لكسب ولائهم له^(٢)، وقد أمدنا ابن أبي طي بكل هذه التفاصيل الهامة، والتي كان والده

أحد شهود العيان فيها. فقال: «وكانوا قد اشترطوا على الملك الصالح أنه يعيد إليهم «شرقية الجامع» يصلون فيها على قاعدتهم القديمة، وأن يُجهر «بَحَى على خير العمل» والأذان والتذكير في الأسواق؛ وقدام الجنائز بأسماء الأئمة الاثني عشر، وأن يصلوا على أمواتهم «خمس تكبيرات»، وأن تكون عقود الأنكحة إلى الشريف «الظاهر أبي المكارم حمزة بن زهرة الحسيني»^(٣)، وأن تكون العصبية مرتفعة، والناموس وازع لمن أراد الفتنة؛ وأشياء كثيرة. اقترحوها مما كان قد أبطله نور الدين رحمه الله. فأجيبوا إلى ذلك. ثم قال ابن أبي طي: فأذن المؤذنون في منارة الجامع وغيره بَحَى على خير العمل وصلّى «أبي» في «الشرقية»

(١) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦٠٩.

(٢) هذه هي المرة الثانية التي استغل الشيعة فيها اضطراب أحوال حلب ليطلبوا بإعادة شعائهم التي أبطلها نور الدين محمود، وكانت المرة الأولى - كما سبق أن ذكرنا - في عام ٥٥٤ هـ / ١١٥٩ م عندما مرض نور الدين بحلب وحاول أخوه «نصرة الدين أمير أميران» الاستيلاء على البلد، فطالبه الشيعة بإعادة شعائهم، فوافقهم، وبعد شفاء نور الدين محمود عادت أحوال الشيعة إلى سابق عهدها. وفي أثناء حصار صلاح الدين الثاني لحلب في عام ٥٧١ هـ. والذي سوف نذكر تفاصيله فيما بعد. أعطي الملك الصالح الشيعة «الشرقية» في المسجد الجامع ليجتمعون فيها للصلاة، واختلف بذلك ابن العديم مع ابن أبي طي في توقيت إعادة شعائر الشيعة، حيث ذكره ابن أبي طي - كما هو مبين بالمثل - بعد حصار حلب الأول في عام ٥٧٠ هـ / ١١٧٥ م. (ابن العديم: زبدة الحلب، ج ٢، ص ٣٠٨-٣٠٩، ج ٣، ص ٢٩).

(٣) أورد ابن كثير نفس رواية ابن أبي طي عن الشروط التي اشترطها الشيعة على الملك الصالح إسماعيل. انظر: (البداية، ج ١٢، ص ٨١٤).

مستبلا، وصلّى وجوه الحلبيين خلفه وذكروا في الأسواق وقدّام الجنائز بأسماء الأئمة وصلّوا على الأموات خمس تكبيرات، وأذن للشريف في أن تكون عقود الحلبيين من الإمامية إليه وفعلوا جميع ما وقعت الأيمان عليه^(١).

وبهذا آمن الملك الصالح ومن حوله من الأمراء من أهل حلب بقسميه السنة والثبيرة واستمر صلاح الدين في حصار حلب على الرغم من شدة برودة الطقس، وقد وصف العماد الأصفهاني ذلك فقال: «وكانت الشتوة ذات أنواء وتلوج، وعواصف هوج»^(٢) ولعل هذا كان من العوامل إلى دفعت صلاح الدين إلى طلب عقد الصلح مع الحلبيين، وكان ابن أبي طي قد انفرد بذكر هذه المبادرة من جانب صلاح الدين، فقال: «وكانت هذه السنة شديدة البرد كثيرة الثلوج عظيمة الأمطار هائجة الأهوية؛ وكان السلطان قد جعل أولاد الداية عُلالة له وسببا يقطع به السنة من ينكر عليه الخروج إلى الشام، وقصد الملك الصالح، ويقول: أنا إنما أتيت لاستخلاص أولاد الداية وإصلاح شأنهم. وأرسل السلطان إلى حلب رسولا يعرض بطلب الصلح، فامتنع كمشتكين فاشتد حيثئذ السلطان في قتال البلد»^(٣).

وعلى أثر ذلك فكر الأمراء في حلب في التخلص من صلاح الدين وقتله، فاستعانوا بقوى خارجية، فلجأوا أولا إلى «راشد الدين سنان» زعيم فرقة الإسماعيلية في بلاد الشام، وعهدوا إليه بهذه المهمة، وقد عرض «العماد الأصفهاني» تفاصيل هذه المحاولة^(٤)، وذكرها أيضا ابن أبي طي، واتفق معه في معظم روايته فقال: «وكانت ليالي الجماعة عند الملك الصالح لا تنقضي إلا بنصب الحبائل للسلطان والفكرة في مخاتله وإرسال المكروه

(١) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦٠٩-٦١٠.

(٢) المصدر السابق، ص ٨٣.

(٣) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦١٠.

(٤) المصدر السابق، ص ٨٣. وانظر أيضا: ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٣٢؛ ابن العديم:

المصدر السابق، ج ٣، ص ٢١-٢٢؛ أبو شامة: المصدر السابق ص ٦١٣-٦١٤ (رواية العماد)؛

ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٤؛ الحنبلي: المصدر السابق، ص ١٠٩.

إليه. فأجمعوا آراءهم على مراسلة «سنان» صاحب الحشيشية في إرصاد المتالف للسلطان و إرسال من يفتك به، وضمنوا له على ذلك أموالاً جمة، وعدة من القرى. فأرسل سنان جماعة من فتاك أصحابه لاغتيال السلطان فجاءوا إلى جبل «جوشن» واختلطوا بالعسكر، فعرفهم «صاحب بوقيس»^(١) لأنه كان مشاعراً لهم، فقال لهم: يا ويلكم: كيف تجاسرتم على الوصول إلى هذا العسكر ومثلى فيه! فخافوا غائلته فوثبوا عليه فقتلوه في موضعه، وجاء قوم للدفع عنه فجرحوا بعضهم وقتلوا البعض. ويدر من الحشيشية أحدهم وييده سكيئة مشهورة ليقصد السلطان ويهجم عليه، فلما صار إلى باب الخيمة اعترضه طغريل أمير جاندار، فقتله، وطلب الباقون فقتلوا بعد أن قتلوا جماعة^(٢).

وبعد فشل هذه المحاولات التى قامت بها فرقة الإسماعيلية، لجأ الأمراء فى حلب إلى إمارة طرابلس الصليبية، فراسلوا أميرها «ريموند الثالث» (١١٥٢ - ١١٨٧ م / ٥٤٧ - ٥٨٣ هـ)، لمعاونتهم على فك الحصار، وقد لقى ذلك قبولا لدى الأمير ريموند بسبب قلقه من قوة نفوذ صلاح الدين فى الشام، لما سيكون لهذه القوة من أثر على هجماته عليهم فى المستقبل^(٣). وقد تناول العماد الأصفهاني هذه المحاولة، وذكر مقدمة عن الأمير ريموند الثالث، أوضح فيها ما كان يتمتع به من قوة و سلطان لدى الصليبيين، مما يشير إلى خطورة هذه المحاولة على حصار صلاح الدين حلب^(٤).

وقد أورد ابن أبى طى هنا أيضا نفس رواية العماد، وتطابقت روايته معه فى بعض الكلمات، فقال: «ولما فات من بحلب الغرض من السلطان بطريق الحشيشية كاتبوا قمص طرابلس وضمنوا له أشياء كثيرة متى رحل السلطان عن حلب. وكان لعنه الله فى أسر نور

(١) هو الأمير ناصح الدين خمارنكين: كان واليا على حصن «أبو قيس» الذى يقع مقابل حصن «شيزر»، وكان يشتبك كثيرا مع الإسماعيلية. (العماد الأصفهاني: سنا البرق، ص ٨٣؛ ابن الأثير: الكامل

ج ٩، ص ١٣٢؛ ياقوت: معجم البلدان، ج ١، ص ٨١).

(٢) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦١٠-٦١١.

(٣) وليم الصوري: المصدر السابق، ج ٤، ص ١٨٤-١٨٥.

(٤) المصدر السابق، ص ٨٣-٨٤. وانظر أيضا: ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٤.

الدين منذ «كسرة حارم»^(١)، وكان قد بذل في نفسه الأموال العظيمة فلم يقبلها نور الدين. فلما كان قبل موت نور الدين سعى له «فخر الدين مسعود بن الزعفراني» حتى باعه نور الدين بمبلغ مائة وخمسين ألف دينار وفكاك ألف أسير^(٢). واتفق في أول هذه السنة موت ملك الفرنج صاحب القدس وطبرية وغيرهما، فتكفل هذا القمص بأمر «ولده المجلوم»^(٣)، فعظم شأنه وزاد خطره^(٤).

وقد بدأ الأمير «ريموند الثالث» تصديه لحصار صلاح الدين لطلب بمراسلة له وتهديده بحجم قوتهم، فرد صلاح الدين عليه بمهاجمة إنطاكية، وهذه المراسلات انفرد بها ابن أبي طي فقال: «فأرسل إلى السلطان في أمر الحلبيين وأخبره الرسول أن الفرنج قد تعاضدوا وصاروا يدا واحدة، فقال السلطان: لست ممن يرهب بتألب الفرنج وهأنأنا ذا سائر إليهم. ثم أنهد قطعة من جيشه وأمرهم بقصد إنطاكية، فغنموا غنيمة حسنة وعادوا»^(٥).

(١) تناولنا تفاصيل هذا الموضوع في فصل الدولة الأتابكية في أحداث عام ٥٥٩ هـ.

(٢) اختلف ابن الأثير مع رأي العماد الأصفهاني و ابن أبي طي في توقيت الإفراج عن أمير طرابلس، فذكر أنه كان بعد وفاة نور الدين محمود في عام ٥٧٠ هـ / ٧٤-١١٧٥ م، وأفرج عنه «سعد الدين كمشكين». واتفق «وليم الصوري» مع العماد الأصفهاني فيما ذكره عن قيام نور الدين محمود بالإفراج عن أمير طرابلس، وذكر أنه تم في مقابل ثمانين ألف قطعة ذهبية، وقد حدد: حسن حبشي في تحقيقه لكتاب وليم الصوري تاريخ الإفراج عنه في أكتوبر عام ١١٧٢ م / ٥٦٨ هـ. (وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج ٤، ص ١٥٥، ١٦٧ هامش (٤٥)؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٣٢؛ ابن العديم: زبدة الخلب، ج ٣، ص ٢٢).

(٣) هو الملك بلدوين الرابع ابن الملك عموري الأول: تولى الحكم في مملكة بيت المقدس بعد وفاة والده في عام ١١٧٤ م / ٥٦٩ هـ وهو في الثالثة عشرة من عمره، وكان قد أصيب بمرض الجذام فتولى ريموند الثالث (١١٥٢-١١٨٧ م / ٥٤٧-٥٨٣ هـ) أمير طرابلس تدبير أمور المملكة، واستمر ملك بلدوين الرابع حتى عام ١١٨٥ م / ٥٨٠ هـ. (وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج ٤، ص ١٧٣-١٧٦، ١٨١؛ سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٥٨٥، ٦٢٣).

(٤) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦١١.

(٥) المصدر نفسه والصفحة.

فاتجه أمير طرابلس ريموند الثالث على أثر هذا الهجوم نحو مدينة حمص، للضغط على صلاح الدين لترك حصار حلب، وأيضا لأن حمص كانت تمثل أهمية كبرى لدى الصليبيين لوجود العديد من رهائنهم بها^(١). وقد أوضح «العماد الأصفهاني» أن هذا المخطط نجح في إبعاد صلاح الدين عن حصار حلب^(٢)، وذكر ذلك أيضا ابن أبي طي، فقال: «فقصد القمص جهة حمص فرحل السلطان من حلب إليها، فسمع الملعون فنكص راجعا إلى بلاده، وحصل الغرض من رحيل السلطان عن حلب»^(٣).

وانتقل السلطان صلاح الدين بعد رحيله عن حلب إلى:

قلعة حمص:

وكان - كما سبق أن ذكرنا - قد بسط سيطرته على مدينة حمص، وظلت قواته تحاصر القلعة لمدة شهر ثم تسلمها^(٤)، ووصلنا من رواية ابن أبي طي خبر ملكه لها فقال: «ووصل إلى حمص فتسلم القلعة ورتب فيها واليا من قبله»^(٥).

وهنا العماد الأصفهاني السلطان صلاح الدين ببعض أبيات من الشعر مدح فيها انتصاره في حمص، وقد دعم ابن أبي طي كتاباته بهذه الأبيات، وصرح باعتماده على العماد فقال: «وفي فتح قلعة حمص يقول «العماد الكاتب» من قصيدة، وستأتي:

إياب ابن أيوب نحو الشام	على كل ما يرتجيه ظهور
يوسف مصر وأيامه	تقر العيون وتشفى الصدور

(١) ولیم الصوري: المصدر السابق، ج ٤، ص ١٩٠-١٩١.

(٢) المصدر السابق، ص ٨٤. وانظر أيضا: ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٣٢؛ ابن العديم: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٢؛ أبو الفداء: المختصر، ج ٣، ص ٥٧.

(٣) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦١١.

(٤) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص ٨٤؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٣٢.

(٥) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦١١.

رأت منك حمص لها كافيًا فواتك منها القوي العسير»^(١)

وبعد اتمام سيطرة صلاح الدين على حمص أرسل البشائر بذلك إلى مصر، لكل من: الفقيه «زين الدين ابن نجا الواعظ»، وأخيه الملك العادل نائبه فيها، وهي من إنشاء القاضي الفاضل، وتعد من الوثائق المهمة التي حرص ابن أبي طي على تدعيم كتاباته بها.

قال ابن أبي طي: «ومن كتاب فاضلي عن السلطان إلى «زين الدين بن نجا الواعظ» يقول في وصف قلعة حمص: والشيخ الفقيه قد شاهد ما يشهد به من كونها نجما في سحاب، وعُقابا في عقاب، وهامة لها الغمامة عمامة، وأنملة إذا خضبها

الأصيل كان الهلال منها قلامه، عاقدة حبوة صالحها الدهر على ألا يجلها بقرعه، عاهدة عصمة صافحها الزمن على ألا يروعها بخلعه. فاكتنفت بها عقارب منجنيقات لا تطبع طبع حمص في العقارب، وضربت حجارة بها الحجارة فأظهرت فيها العداوة المعلومة بين الأقارب؛ فلم يكن غير ثلاثة من الحد إلا وقد أثرت فيها جذريا بضرها، ولم تصل السابع إلا والبحران منذرٌ بنقُبها. واتسع الخرق على الراقع، وسقط سعدها عن الطالع، إلى مولد {من}»^(٢) هو إليها الطالع! وفتحت الأبراج فكانت أبوابا، وسيرت الجبال فكانت سرابا. فهنالكَ بدت نقُوب يرى القائم من دونها ما وراءها، وحُشيت فيها النار فلولوا الشعاع من الشعاع أضاءها».

ثم قال أيضا: «ومن كتاب آخر فاضلي عن السلطان إلى أخيه العادل» قد اجتمع عندنا إلى هذه الغاية ما يزاحم سبعة آلاف فارس، وتكاثفت الجموع إلى الحد الذي يخرج عن العُد. وبعد أن تُرتب أحوال حمص، حرسها الله تعالى، نتوجه إلى حماة؛ والله المعين على ما ننويه من

(١) المصدر نفسه، ص ٦١١-٦١٢ (طبعة دار الكتب).

(٢) ساقطة من طبعة «دار الجليل» (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ٢٣٩ (دار الجليل)؛ ج ١، ق ٢،

ص ٦١٢) (طبعة دار الكتب).

الرّشاد، وننظفه من طرق الجهاد»^(١).

سيطرة صلاح الدين على بعلبك:

بعد الانتصارات التي حققها السلطان صلاح الدين في الشام، راسله «يمن الخادم» والى بعلبك، وسلمها إليه - كما ذكر العماد الأصفهاني وابن الأثير - في شهر رمضان عام ٥٧٠ هـ / ١١٧٥ م^(٢). وقد أضاف ابن أبي طي في روايته أسباب تسليمه بعلبك، وأوضح أنه اضطر إلى ذلك بعد أن استنجد بالأمراء في حلب ولم يصل إليه منهم رد. فقال: «وكان بها خادم يقال له يمن، فلما شاهد كثرة عساكر السلطان اضطرب في أمره وراسل من بحلب على جناح طائر، فلم يرجع إليه منهم خبر؛ فطلب الأمان، وسلم بعلبك إلى السلطان»^(٣).

وكانت مدينة بعلبك آخر أهم البلاد التي دخلت في سلطة الدولة الأيوبية في بلاد الشام في عام ٥٧٠ هـ / ٧٤ - ١١٧٥ م، وقد غطت الأحداث التي وصلتنا من كتابات ابن أبي طي عن سيرة صلاح الدين معظم هذه التوسعات. وتبين لنا خلال دراستنا لهذه الكتابات ومقارنتها بغيرها من الكتابات سواء التي عاصر مؤلفوها هذه الأحداث مثل المؤرخ العماد الأصفهاني، أو عاصروا ابن أبي طي مثل «ابن الأثير»، اعتماد ابن أبي طي اعتمادا

كبيرا على كتابات العماد الأصفهاني، وقد صرح ابن أبي طي في إحدى رواياته باعتماده عليه وذكر عنه بعضا من أبيات الشعر.

كما كان لابن أبي طي إضافات مهمة انفرد بها ومنها: الوثائق المتبادلة بين صلاح الدين والأمراء في الشام، وبينه وبين الأمراء في مصر، كذلك انفرد بكثير من الأحداث

(١) المصدر نفسه، ص ٦١٢ (طبعة دار الكتب).

(٢) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص ٨٤؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٣٢. وانظر

أيضا: ابن العديم: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٢؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٩ - ٣٠.

(٣) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦٣١.

خاصة التي تتعلق بتاريخ حلب، ومن الواضح أن والده كان من أهم مصادره فيها، حيث كان - كما ذكرنا - شاهد عيان لبعض منها.

وتناولت كتابات ابن أبي طي في بقية أحداث عام ٥٧٠ هـ / ١١٧٥ م تفاصيل الصراع بين صلاح الدين وملوك الموصل وحلب، وعلاقة صلاح الدين بالخلافة العباسية في بغداد، ثم ملكه حصن «بَعْرين»، وختم ابن أبي طي أحداث العام بعرضه لإحدى الفتن التي قامت في دمشق وحلب.

الصراع بين صلاح الدين وملوك الموصل وحلب (معركة قرون حماة):

أثارت التوسعات التي حققها صلاح الدين في شهور قليلة في بلاد الشام ملوك الموصل وحلب، وقرروا وقف زحفه خوفا على مصالحهم.

وكان صلاح الدين بعد ملكه بعلبك قد عاد إلى حمص، وهناك علم - كما ذكر العماد الأصفهاني - بوصول الأمير «عز الدين مسعود»^(١) أخى «سيف الدين غازي» ملك الموصل قائدا لجيش كبير من قوات الموصل، وذلك لنجدة الملك الصالح إسماعيل في حلب^(٢)، وقد أوضح «ابن الأثير» أن الملك الصالح إسماعيل قام بمراسلة ابن عمه سيف الدين غازي ملك الموصل مستغيثا به بعد أن اتسعت أملاك صلاح الدين وشملت دمشق وحمص وحماة^(٣)، وعلل «ابن شداد» سبب إقدام سيف الدين غازي على نجدة ابن عمه إلى

(١) هو عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي: تولى الموصل بعد وفاة أخيه سيف الدين غازي في عام ٥٧٦ هـ / ١١٨٠ م، واستمر ملكه لها حتى توفي في عام ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م. (التويري: نهاية الأرب، ج ٢٧، ص ١٨٧).

(٢) المصدر السابق، ص ٨٦. وانظر أيضا: أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦٣٤ (رواية العماد).

(٣) المصدر السابق، ج ٩، ص ١٣٣ وانظر أيضا: ابن العديم: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٢؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٠.

خوفه أيضا على أملاكه خاصة بعد أن صار صلاح الدين بعد ما حققه من توسعات قوة لا يستهان بها^(١).

وقد تناول ابن أبي طي في مقدمة روايته عن هذا الموضوع ما ذكره العماد الأصفهاني، وانفرد بعد ذلك بذكر تفاصيل المراسلات بين حلب والموصل، فقال: «لما تسلم السلطان بعلبك وأزاح عائلها، عاد إلى حمص ونزل بها، فاتصل به ورود «عز الدين مسعود» أخى «سيف الدين» صاحب الموصل، نجدة للملك الصالح. وكان سبب وروده أن جماعة من أمراء حلب لما ك السلطان نازلا على حلب أجمعوا آراءهم وكاتبوا سيف الدين وألزموه نجدة ابن عمه، وأنه أن السلطان متى ملك حلب لم يكن له قصد إلا الموصل؛ وأرسلوا بذلك «أمين الدين» ها خطيب حلب، و «قطب الدين ينال بن حسان» و «غرس الدين قليج»^(٢)»^(٣).

ثم تناول ابن أبي طي الأحوال في الموصل قبل وصول استغاثة ملك حلب أن سيف الدين غازى أبدى اهتماما كبيرا بأمر حلب حتى أنه أنهى الخلاف الذى كان بينه بين أخيه «عماد الدين بن زنكي»^(٤) أمير «سنجار»^(٥) وأرسل جيشه لنجدة حلب فقال

(١) النوادر السلطانية، ص ٥٠.

(٢) هو غرس الدين قليج: أحد أمراء نور الدين محمود، وشارك في حملة أسد الدين شيركوه على مصر في عام ٥٦٤ هـ / ١١٦٩ م، وتولى بعض القلاع مثل: دركوش - الشفر - بكاس، توفي في عام ٥٩٤ هـ / ١١٥٤ م. (ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٠٠؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج ٢، ص ٣٢٦؛ ج ٣، ص ١٤١).

(٣) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦٣٦ - ٦٣٧.

(٤) عماد الدين زنكي بن قطب الدين بن عماد الدين زنكي بن أقسنقر: أكبر أبناء قطب الدين مودود وكان قد عهد إليه بولاية العهد من بعده ثم تراجع وجعلها لأخيه سيف الدين غازى، واستقر ملكه في سنجانر بعد وفاة والده في عام ٥٦٥ هـ / ١١٧٠ م، ثم تركها وتولى حلب ثم تركها وعاد لحكم سنجانر والخابور والرقعة. توفي عام ٥٩٤ هـ / ١١٩٧ م. (النويرى: نهاية الأرب، ج ٢٧، ص ١٨٠، ١٩٠).

(٥) سنجانر: من المدن الواقعة في جزيرة أقور بين نهري دجلة والفرات، بالقرب من الموصل. (ياقوت معجم البلدان، ج ٢، ص ١٣٤؛ ج ٣، ص ٢٦٢).

«وكان سيف الدين منازلًا «السنجار» وفيها أخوه عماد الدين ابن زنكي. وكان عماد الدين قد أظهر الانتفاء إلى السلطان، فأنجده السلطان بقطعة من جيشه فكسروهم ونهبهم عماد الدين بهم وبعسكره. فلما وصلت رسالة الحلبيين إلى سيف الدين صالح أخاه عماد الدين وحشد عسكره وأنفذ يجيهم مع أخيه عز الدين مسعود»^(١).

وهذا الرأي لم يوافق كتابات ابن الأثير، وعلى العكس من ذلك فقد أكد أن سيف الدين غازي لم يصالح أخاه عماد الدين بن زنكي في ذلك الوقت، وأوضح أن الصلح بينهم وقع بعد هزيمة قوات الموصل وحلب أمام صلاح الدين في موقعة قرون حماة^(٢).

على أية حال وصل جيش الموصل بقيادة عز الدين مسعود، وقام بحصار حماة ثم ما لبث أن رحل عنها، وعلل العماد الأصفهاني ذلك بأنه وجد «أنهم لا يتألون منها»^(٣)، وأضاف ابن أبي طي في روايته المزيد عن أسباب رحيل جيش الموصل عن حماة، والمرحلة التالية التي نزل عندها، فقال: «فورد (عز الدين مسعود) حلب بعد رحيل السلطان عنها إلى بعلبك؛ فاغتنم الحلبيون بعد السلطان عنهم فاحتشدوا وخرجوا جميعا حتى خيموا على حماة وأخذوا في حصارها. واتصل بالسلطان ذلك فرحل من بعلبك إلى حمص، وبلغ عز الدين فعاد عن حماة ونزل قريبا من «جباب التركمان» إلى جهة العاصي إلى قريب من شيزر»^(٤).

(١) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦٣٧.

(٢) المصدر السابق، ج ٩، ص ١٣٣. وانظر أيضا: ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٥١؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣١؛ أبو الفداء: المصدر السابق، ج ٣، ص ٥٧؛ النويري: المصدر السابق، ج ٢٧، ص ١٨٠.

(٣) المصدر السابق، ص ٨٦. وانظر أيضا: ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٢.

(٤) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦٣٧ (طبعة دار الكتب).

وبعد رحيل قوات الموصل عن حماة، قام «عز الدين مسعود» بمراسلة نائب صلاح الدين في حماة ليتوسط بينهم وبين صلاح الدين لعقد الصلح، وبدأت المفاوضات حول بنود الصلح، ولكن لم يقع جانب الموصل و حلب بما تنازل عنه صلاح الدين وفشلت لذلك المفاوضات.

وتناول تفاصيل هذا الموضوع «العماد الأصفهاني»^(١)، واتفق معه ابن أبى طى اتفاقا كبيرا، مما يؤكد اعتماد ابن أبى طى على كتاباته. فقال: «و{أرسل}»^(٢) النائب بحماة «على ابن أبى الفوارس» يقول له: إنها وصلت في إصلاح الحال ووضع أوزار القتال؛ وسأله مكتابة السلطان فيما يجمع الكلمة ويلم شعب الفرقة. فكتب ابن أبى الفوارس بذلك إلى السلطان وحسّن له الصلح وتلطف في ذلك غاية التلطف. وقدم «أبو صالح بن العجمي» و«سعد الدين كمشكين» لطلب الصلح، فأجابها السلطان إلى ما أرادا. وتقرر الأمر على أنه يرد إليهم جميع الحصون والبلاد، ويقنع بدمشق وحدها، ويكون نائبا للملك الصالح. فلما عين سعد الدين إجابة السلطان إلى الصلح

والتزول عن جميع الحصون التي أخذها: حمص وحماة وعلبك، طمع في جانب السلطان و تجاوز الحد في الاقتراح، وطلب «الرجبة» وأعمالها. فقال: هي لابن عمى ولا سبيل إلى أخذها. فقام سعد الدين من بين يديه نافرا، وكان ذلك برأى أبى صالح ابن العجمى لأنه كان معه فاجتهد السلطان به أن يرجع فلم يفعل»^(٣).

وبعد فشل هذه المفاوضات بدأت قوات الموصل وحلب في الاستعداد لقتال صلاح الدين، وقد شجعهم على ذلك معرفتهم بضعف قواته، حيث كان قد خرج عند اجتماعه

(١) المصدر السابق، ص ٨٦. وانظر أيضا: ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣١-٣٢؛ ابن كثير: المصدر السابق، ج ١٢، ص ٨١٥.

(٢) في «طبعة دار الجليل». «وراسل». ونرى أن المعنى هنا أدق، لأنه أوضح قيام عز الدين مسعود بمراسلة النائب في حماة. (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ٢٤٩).

(٣) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦٣٧-٦٣٨.

معهم في مفاوضات الصلح في «عسكر حفيف» كما ذكر «العماد الأصفهاني»^(١).

وقد عرض ابن أبي طي في روايته تفاصيل استعدادات كلا الجانبين للقتال، وأوضح السياسة التي اتبعها صلاح الدين لكي يؤجل اللقاء بينهما حتى يأتيه المدد العسكرى، واتفق ابن أبي طي مع العماد فيما ذكره عن حجم قوات صلاح الدين، وانفرد بباقي التفاصيل، فقال: «وخرج (ابن العجمي) إلى عز الدين مسعود وكان بعدُ نازلا على حماة، وحدثه ما دار بينه وبين السلطان وهون عليه أبو صالح أمر السلطان واخبره بقلّة من معه. وكان السلطان لما كوتب في أمر الصلح سار في خوف من أصحابه، فلما علموا بذلك طمعوا في جانبه وعولوا على لقائه وانتهاز الفرصة في أمره؛ فكاتب باقى أصحابه واستعد لحربهم، وسار إلى أن نزل على «قرون حماة»، وأخذ في مدافعة الأيام حتى يقدم عليه باقى عسكره. وراسلهم في التلطف للأحوال، فلم ينجح فيهم حال. وكانوا في كل يوم يعزمون على لقائه وقتاله، فيبطل عزيمتهم بمراسلة يفتعلها، تسويقا للأوضاع وتقطيعا للزمان، حتى يقدم عليه عسكره وكانت هيئته قد ملأت صدور القوم، ولولا ذلك لكانوا قد ناهزوا الفرصة ونالوا منه الغرض»^(٢).

ثم بدأ القتال بين صلاح الدين وقوات الموصل و حلب بالقرب من مدينة حماة عند منطقة «قرون حماة» في التاسع عشر من شهر رمضان عام ٥٧٠ هـ / ١١٧٥ م وانتهت المعركة بهزيمة قوات الموصل و حلب. وقد تناول العماد الأصفهاني وابن الأثير وكثير من المؤرخين أحداث هذه المعركة باختصار^(٣). وانفرد ابن أبي طي بينهم بذكر تفاصيل القتال، واتفق في بعض أحداثه مع العماد الأصفهاني، وقد كشف ابن أبي طي في روايته

(١) المصدر السابق، ص ٨٦.

(٢) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦٣٨.

(٣) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص ٨٦-٨٧؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٣٣.

وانظر أيضا: ابن شداد: النوادر، ص ٥١؛ ابن العديم: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٣؛ ابن

خلكان: وفيات الأعيان، ج ٧، ص ١٦٦-١٦٧؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٢؛

النوري: المصدر السابق، ج ٢٨، ص ٣٧٧؛ أبو المحاسن: النجوم، ج ٦، ص ٢٥.

النقاب حول الخطة التي اتبعها صلاح الدين حتى يأتيه المدد من مصر، وأثرها بعد ذلك على نتائج المعركة.

قال ابن أبي طي: «وفي يوم الأحد تاسع عشر رمضان التقوا، ولم يكن وصل السلطان من عسكره أحد؛ فجتمع أصحاب السلطان «كردوسا»^(١) واحدا، واخذوا يحملون يمينا ويسرة ويدافعون الأوقات رجاء أن يتصل بهم بعض العسكر. وضرى عسكر حلب والعسكر الموصل على أصحاب السلطان حين شاهدوا قتلهم واجتماعهم؛ وكاد أصحاب السلطان يولون الأدبار، فوصل «تقي الدين عمر» عند الحاجة إليهم لتسامح {سعادة السلطان}^(٢)، فإنه لو تأخر ساعة {انكسر}^(٣) عسكره؛ فوصل تقي الدين في عسكر مصر و«جماعة من الأمراء»^(٤) وهم غير عالمين بأن الحرب قائمة. فلما رأوا الناس في الكر، والضرب «المهبر»^(٥)، حملوا جميعا بعد أن افرقوا في {اليمنة واليسرة}^(٦)، فصدموا عسكر الموصل صدمة ضعفتهم. وكان السلطان في هذه المدة قد كاتب جماعة من عسكرهم واستفسد بهم إليه، وحمل إليهم الأموال. وهذا هو الذي أبطأ بهم إلى أن وصلت عساكره، وإلا {لو}^(٧) كان عسكر حلب نصح لم يقدر السلطان على الثبوت ساعة. فلما اشتد القتال لم ينصح الجماعة التي كاتبها السلطان بل كانوا مثبطين مخوفين لمن قُرب منهم. ثم إنهم بعد ذلك انهزموا

(١) الكرُدوس: الخيل العظيمة، ويقال كَرَدَس القائد خيله أي جعلها كتيبة. (ابن منظور: لسان العرب، ج ١٢، ص ٦٣).

(٢) في طبعة «دار الجليل» «السعادة للسلطان». (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ٢٥٠).

(٣) في طبعة «دار الجليل» «لانكسر». ونعتقد أن هذا المعنى هو الأصح لاستقامة المعنى. (المصدر نفسه والصفحة).

(٤) وصل من مصر عشرة من كبار الأمراء، منهم: تقي الدين عمر، وعز الدين فرخشاه، أبنا أخي صلاح الدين، وشهاب الدين محمود بن تكش خال صلاح الدين وخواص رجاله. (العماد الأصفهاني: سنا البرق، ص ٨٦؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ٣٢).

(٥) المهْبَرُ: القطع، واهتبر بالسيف قطع. (ابن منظور: لسان العرب، ج ١٢، ص ٦٣).

(٦) في طبعة «دار الجليل» «اليمنة واليسرة». (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ٢٥٠).

(٧) في طبعة «دار الجليل» «فلو». (المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٥٠).

وتبعهم عسكر السلطان واستباحوا أموالهم وخيامهم، وأمر السلطان أصحابه ألا يؤغلوا في طلبهم ولا يقتلوا من رأوه منهزما ولا يذفقوا على جريح، ورحل حتى نزل في منزلتهم^(١)»^(٢).

وبعد انتصار صلاح الدين في المعركة قام - كما ذكر ابن الأثير - بإلغاء كل المظالم التي توضح ولاءه للملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود، فقطع الخطبة له من بلاده، ورفع اسمه من العملة^(٣)، ثم سار بعد ذلك حتى وصل إلى منطقة «قرا حصار»^(٤)، وأوضح «العماد الأصفهاني» أنه ظل نازلا هناك بنية الحصار حتى انتهى عيد الفطر، فقرر لذلك الأمراء في حلب عقد الصلح معه، ووصلت إليه رسل الملك الصالح لتفاوض معه بشأن بنود العقد، وتقرر فيه أن يكون لصلاح الدين فضلا عما معه من بلاد بلدتى «المعرة»^(٥) و «كفر طاب»^(٦)»^(٧).

وقد عرض ابن أبي طي في روايته معظم ما ذكره العماد الأصفهاني، فقال: «ثم سار (صلاح الدين) من وقته مجدا حتى نزل بمرج «قرا حصار»، ولم يزل هناك حتى عيد عيد

(١) تطابقت بعض الكلمات التي أوردها ابن كثير في أحداث القتال مع رواية ابن أبي طي . (البداية ، ج ١٢ ، ص ٨١٥ - ٨١٦).

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٣٨ - ٦٣٩ (طبعة دار الكتب) .

(٣) المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٣٣ ؛ ابن شداد : النوادر ، ص ٥١ ؛ ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٤ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٢ ؛ التويري : المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ص ٣٧٧ ؛ المقرئزي : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٥٩ ؛ أبو المحاسن : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٢٥ .

(٤) قَرَا حِصَار : مرج كبير في شمال حلب . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٣١٥) .

(٥) مَعْرَةُ النُّعْمَان : مدينة كبيرة من أعمال حمص بين حلب وحماة . (المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ١٥٥ - ١٥٦) .

(٦) كَفْرُ طَاب : بلدة بين المعرة ومدينة حلب . (المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٤٧٠) .

(٧) المصدر السابق ، ص ٨٧ - ٨٨ . وانظر أيضا : ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٥١ ؛ ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٤ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٣ ؛ ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ٨١٦ ؛ المقرئزي : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٥٩ .

الفطر، فجاءته رسل الملك الصالح يسألونه المهادنة وأن {يُقرر} (١) الملك الصالح على ما في يده وما هو جار تحت حكمه من الشام الأسفل إلى بلد حماة فلم يرض بذلك، فجعلوا له مع حماة المعرة وكفر طاب، فرضى بذلك (٢).

وقد اشتمل عقد الصلح على بنود أخرى مهمة انفرد بها ابن أبي طي، لأنه كان قد رأى نسخة العقد الموقعة بخط صلاح الدين ونقل منها مباشرة هذه البنود ولهذا تمثل كتاباته هذه أهمية كبيرة بين كثير من المؤرخين.

كان أول هذه البنود يتضمن معاهدة دفاعية وقعتها صلاح الدين للدفاع عن الملك الصالح إسماعيل في حلب عند تعرض بلاده لأية هجوم خارجي، ووافق صلاح الدين في البند الثاني على استمرار ولائه للملك الصالح وإقامة كل المظاهر الدالة على ذلك في كل البلاد الخاضعة لسلطته. وفي هذا البند إشارة لما ذكره ابن الأثير من قبل عن قيام صلاح الدين بقطع ولائه للملك الصالح، وفيه أيضا إضافة مهمة توضح عودة العلاقات بينهما إلى سابق عهدهما. قال ابن أبي طي: «وحلف على نسخة «رأيتها» وعليها خطه» (٣). قال: وكان في جملة اليمين أنه متى قصد الملك الصالح عدو حضر بنفسه وجيوشه ودافع عنه، و (١) (I II) و (٢) (I II) و (٣) (I II) وأصحابه، وأن تكون السكة باسمه (٤). ولما حلف السلطان والملك الصالح وأمرأوه عاد

(١) في طبعة «دار الجليل». «يقر». ونعتقد أن هذا المعنى هو الأصح لاستقامة المعنى. (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ٢٥٠).

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٦٣٩ (طبعة دار الكتب).

(٣) أورد المقرئ نفس عبارة ابن أبي طي في هذا الجزء فقال: «وكتبت نسخة يمين وعليها خط صلاح الدين، بعد ما حلف». (السلوك، ج ١، ق ١، ص ٥٩).

(٤) في طبعة «دار الجليل». «أن لا». (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ٢٥٠).

(٥) ذكر ابن كثير البند الثاني الذي أورده ابن أبي طي. وأضاف بنود أخرى. (البداية، ج ١٢، ص

السلطان قاصدا دمشق^(١).

ولم يستمر هذا الصلح لمدة طويلة حيث تجدد الصراع بين صلاح الدين وملوك الموصل وحلب مرة أخرى في عام ٥٧١ هـ / ١١٧٥ م، وسوف نوضح رأى ابن أبي طي في هذا الموضوع في أحداث ذلك العام. ونواصل الآن باقى كتابات ابن أبي طي عن أحداث عام ٥٧٠ هـ / ١١٧٥ م.

العلاقة بين الخلافة العباسية وصلاح الدين:

تناولت كتابات ابن أبي طي في عام ٥٧٠ هـ / ١١٧٥ م العلاقة بين الخليفة العباسي المستضى بأمر الله (٥٦٦ - ٥٧٥ هـ / ١١٧٠ - ١١٨٠ م) وصلاح الدين. وفي حقيقة الأمر فقد شهدت العلاقة بينهما تطورا كبيرا في ذلك العام، حيث لم يعد صلاح الدين نائبا عن نور الدين محمود في حكم إحدى ولاياته، بل أثبت للخلافة العباسية بعد وفاة نور الدين محمود في عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م، أنه أقوى من يخلف نور الدين محمود من أمرائه، ويواصل سياسته سواء في طاعته وولائه للخلافة العباسية أو في تحقيق الوحدة الإسلامية.

وهذا التحول في العلاقة تم - في رأينا - بناء على خطة وضعها صلاح الدين لكسب رضا الخلافة العباسية، وذلك لأنه على الرغم من أن الخلافة كانت في ذلك الوقت لا حول ولا قوة لها إلا أن تأثيرها الديني بصفتها حامية العالم الإسلامي كان لا يزال قويا، وكان الخلفاء يعطون تأييدهم لمن يستطيع الدفاع عن البلاد الإسلامية، ومن هنا كان على صلاح الدين أن يثبت ذلك للخلافة، فأرسل إلى الخليفة المستضى أولا: رسالة مهمة أوضح فيها «نظريا» مدى قوته وقدرته على تحمل الصعاب ونجاحه في إحراز العديد من الانتصارات، وذلك منذ أن كان أميرا في جيش نور الدين محمود، وحرص في كل فقرة في هذه الرسالة على أن يؤكد ولاءه وطاعته للخليفة، وطلب في ختام هذه الرسالة تقليدا بولاية: «كل ما تشتمل

(١) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦٣٩.

عليه الولاية النورية»^(١). ثانيا: سار صلاح الدين بقواته من مصر إلى بلاد الشام، وكان أحد أهدافه من ذلك هو أن يؤكد «عمليا» للخلافة العباسية تميزه بين أمراء نور الدين محمود، فتجح في ضم العديد من البلاد التي سبق أن ذكرناها، وأصبح الآن أقوى من يخلف نور الدين محمود ويستحق بذلك تأييد الخلافة، ولهذا أرسل إليه الخليفة العباسي المستضع بأمر الله تقليدا بولاية مصر و الشام بعد أيام قلائل من انتصاره على قوات الموصل وحلب^(٢).

ووصلت رسل الخلافة العباسية بهذا «التقليد»^(٣) إلى صلاح الدين في حمّة في شوال عام ٥٧٠ هـ / ١١٧٥ م، وكان معهم أيضا كما ذكر العماد الأصفهاني الخلع العباسية له و لأقاربه^(٤)، وأمدنا ابن أبي طي بمضمون التقليد، كما أورده بعض المؤرخين اللاحقين به^(٥) فقال: «فلما وصل إلى حمّاه وصلت إليه رسل الخليفة المستضع ومعهم التشريفات الجليلة والأعلام السود، وتوقيع من الديوان بالسلطنة ببلاد مصر والشام. ثم قال: وفي هذه الخلع يقول ابن سعدان الحلبي:

يأيها الملك العزيز فضله لقد غدوت بالأعلام لي
كفى أمير المؤمنين شرفا أنك أصبحت له وليا

(١) للمزيد من التفاصيل حول هذه الرسالة انظر . (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ق ٢، ص ٦١٦-

٦٢٣؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٣، ص ٨١-٩٠).

(٢) شيرين شليبي العشماوي: العلاقات السياسية بين الخلافة العباسية ومصر، ص ٢٠٧-٢٢٦ (رسالة ماجستير).

(٣) للمزيد من التفاصيل حول نص التقليد انظر . (القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٠، ص ١٣٥-١٤٤).

(٤) المصدر السابق، ص ٨٨-٨٩. وانظر أيضا: ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٣٣؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٤.

(٥) منهم: التويري: المصدر السابق، ج ٢٨، ص ٣٧٧؛ ابن كثير: المصدر السابق، ج ١٢، ص ٨١٦؛ المقرئ: المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٦٠.

طارحك الورد على شحط التوى
فكنت ذاك الصادق الموفيا
أولاك من لبامه زخرفة
لم يولها قلبك آدميا
ناسبت الروض سنا وبهجة
حتى حكته رونقا وزيا^(١)

سيطرة صلاح الدين على بعرين:

ختم صلاح الدين توسعاته في بلاد الشام في عام ٥٧٠ هـ / ١١٧٥ م بسيطرته على حصن بعرين، وأوضح العماد الأصفهاني أن والي هذا الحصن وهو «فخر الدين مسعود بن الزعفراني» كان قد أقام علاقات طيبة مع صلاح الدين طمعا في مركز أفضل لديه، ولكن أملة خاب بعد ذلك، وسار إليه صلاح الدين وملك منه الحصن سلما في آخر شوال من السنة^(٢).

وقد اتفق ابن أبي طي مع العماد في روايته عن العلاقة بين صلاح الدين و ابن الزعفراني، ولكنه اختلف معه في كيفية سيطرة صلاح الدين على الحصن، فأوضح ابن أبي طي أنه ملكه بعد أن قام بحصاره، واتفق معه في ذلك ابن الأثير وبعض المؤرخين^(٣). فقال: «ورحل السلطان من حماة إلى بعرين، وكان فيها فخر الدين مسعود ابن الزعفراني، وكان خرج إلى السلطان لما وصل إلى الشام وتطارح عليه وخدمه، وظن أن السلطان يقدمه على عساكره، فلم يلتفت إليه، فترك السلطان وعاد إلى حصن بعرين، فأغضب السلطان ذلك وسار إليه وحاصره حتى تسلم حصنه»^(٤).

كانت كتابات ابن أبي طي عن ملك صلاح الدين حصن بعرين آخر ما وصلنا من

(١) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦٣٩ - ٦٤٠.

(٢) المصدر السابق، ص ٨٩.

(٣) المصدر السابق، ج ٩، ص ١٣٣-١٣٤. وانظر أيضا: ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٤؛

النويري: المصدر السابق، ج ٢٨، ص ٣٧٨؛ المقرئ: المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٦٠.

(٤) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦٤٠.

كتاباته عن تاريخ صلاح الدين في بلاد الشام في عام ٥٧٠ هـ / ٧٤-١١٧٥ م. وكانت السمة العامة التي ظهرت من خلال تحليل كتاباته التي عرضناها له في هذا العام هي اعتماده كثيرا على كتابات العماد الأصفهاني الذي يعد مصدرا مهما من مصادر تاريخ الدولة الأيوبية، كذلك كان لابن أبي طي بصمة خاصة ميزت كتاباته لانفراده بذكر بعض التفاصيل التي لم يذكرها من عاصره من المؤرخين، وكانت بعد ذلك من المصادر المهمة لبعض المؤرخين اللاحقين به مثل «ابن كثير» و«المقرئزي».

وتبقى من كتابات ابن أبي طي في عام ٥٧٠ هـ / ١١٧٥ م حادثتين، الأولى تناول فيها أحداث فتنة أثارها أحد مدعى النبوة في دمشق وحلب، فقال: «و ظهر في مشغرا»^(١)، قرية من قرى دمشق، رجل ادعى النبوة وكان من أهل المغرب، وأظهر من التخاييل و التمويهات ما فتن به الناس، وأتبعه عالم عظيم من الفلاحين وأهل السود، وعصى على أهل دمشق، ثم هرب من مشغرا في الليل وصار إلى بلد حلب، وعاد إلى إفساد عقول الفلاحين بما يريهم من الشعبة و التخاييل ؛ وهوى امرأة وعلمها ذلك، وادعت أيضا النبوة»^(٢)،^(٣).

كما ذكر المؤرخ ابن العديم فتنة أخرى وقعت أحداثها في العام التالي في حلب ولعلها تكملة لما ذكره ابن أبي طي^(٤).

أما الحادثة الثانية التي ختم بها ابن أبي طي أحداث هذا العام، فقد ذكر فيها إحدى التراجم، وفي هذا إشارة إلى انه كان يتبع في كتاباته نهج كثير من المؤرخين في ختام كتاباتهم الحولية، وأورد في هذا الترجمة خبر وفاة أمير «قلعة البيرة»^(٥)، فقال: «وفيها توفي لشهاب

(١) مشغراً : من قري دمشق ناحية البقاع . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ١٣٤) .

(٢) أورد ابن كثير نفس رواية ابن أبي طي عن هذا الموضوع انظر : (البداية ، ج ١٢ ، ص ٨١٦) .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٤٣ .

(٤) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٦-٢٥ .

(٥) البيرة : قلعة قرب سُميساط بين حلب والثغور الرومية . (ياقوت : معجم البلدان . ج ١ ، ص ٥٢٦) .

الدين إلياس الأرتقي» صاحب البيرة، وأوصى إلى الملك الناصر صلاح الدين بولده «شهاب الدين محمد»^(١).

وفي عام ٥٧١ هـ / ١١٧٦ م تجدد الصراع مرة ثانية بين صلاح الدين وملوك الموصل وحلب، و اتسعت الدولة الأيوبية في بلاد الشام وضمت العديد من البلاد، كذلك قام صلاح الدين بحصار حلب مرة أخرى، هذا فضلا عن بعض الموضوعات الأخرى التي وصلتنا من خلال كتابات المؤرخ ابن أبي طي في هذا العام.

معركة تل السلطان:

وقعت أحداث هذه المعركة في شهر شوال عام ٥٧١ هـ / ١١٧٦ م بالقرب من حلب في منطقة تعرف «بتل السلطان»^(٢)، ودارت بين صلاح الدين وقوات الموصل وحلب، وكان القتال قد نشب بين الفريقين بعد نقض الملك الصالح إسماعيل عهده مع صلاح

الدين، حيث أقنعه سيف الدين غازي ملك الموصل بذلك لأنه كان رافضا هذا الصلح، فاتحدا معا لقتال صلاح الدين^(٣).

وقد وصلنا من كتابات ابن أبي طي نتائج المعركة فقط، حيث اختصر أبو شامة عند ذكره نص رواية ابن أبي طي مقدمة الأحداث التي توضح أسباب القتال وأحداث المعركة^(٤)، والجزء الذي ذكره أبو شامة تناول فيه ابن أبي طي تفاصيل هزيمة سيف الدين

(١) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦٤٣.

(٢) ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٣٥-١٣٦.

(٣) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص ٩٠-٩١؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٦-

٣٧.

(٤) لمزيد من التفاصيل حول أحداث المعركة انظر: (العماد الأصفهاني: سنا البرق، ص ٩٣-٩٦؛ ابن

الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٣٦؛ ابن شداد: النوادر، ص ٥٢؛ ابن العديم: زبدة الحلبي، ج ٣،

ص ٢٧؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ٣٧-٤٠).

غازى ملك الموصل، واتفق في معظمه مع العماد الأصفهاني^(١)، كما أضاف ابن أبي طي تفاصيل أخرى أوضحت اهتمام سيف الدين غازى باللهو والغناء حتى في وقت الحرب، فقال: «أن ميسرة سيف الدين انكسرت، فتحرّك إلى جانبها ليكون {رذءاً} لها ومددا، فظن باقى العسكر أنه قد انهزم فانهزموا، فحقق ما كان وهما، فسار على وجهه لا يلوى على شئ؛ وتبعهم السلطان، فهلك منهم جماعة قتلا وغرقا وأسر جماعة كبيرة»^(٢) من وجوههم وأمرائهم ثم رجع وأمر أصحابه برفع السيف عن الناس، وترك التعرض لمن وُجد منهم يقتل أو نهب. وفرق ما وجد في خزائن سيف الدين وسير جواريه وحظاياها إلى حلب، وأرسل إليه بالأقفاص وقال له: عد إلى اللعب بهذه الطيور، فإنها ألد من مقاساة الحرب ووجد السلطان عسكر الموصل كالحانة من كثرة الخمر و«البرابط» و«العيدان» و«الجنوك» والمغنيين و المغنيات. قال: واشتهر أنه كان مع سيف الدين أكثر من مائة مغنية^(٣)، وأن السلطان أرى ذلك لعساكره واستعاذ من هذه البليّة. وكان أنفذ الأمراء الذين أسرهم إلى حماة ثم ردّهم، وخلع عليهم وأرسلهم إلى حلب»^(٤).

واهتم ابن أبي طي بعد تدوينه أحداث انتصار صلاح الدين في هذه المعركة، أن يضيف إلى كتاباته عن هذا الموضوع ثلاث قصائد نظمت للتهنئة بهذا الانتصار. فذكر

عدة أبيات من قصيدة «للعامد الأصفهاني» كتبها لتهنئة صلاح الدين. وهذه القصيدة أوردها العماد في كتابه «خريدة القصر و جريدة العصر»^(٥)، ولكن من الواضح أن ابن أبي طي اعتمد على مصدر آخر للعماد غير الخريدة، حيث ظهر من خلال مقابلة الأبيات التي

(١) المصدر السابق، ص ٩٦.

(٢) في طبعة «دار الجليل». «ردا». (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ٢٥٥).

(٣) في طبعة «دار الجليل». «كثيرة». (المصدر نفسه والصفحة).

(٤) أورد ابن كثير نفس رواية ابن أبي طي في هذا الجزء. انظر: (البداية، ج ١٢، ص ٨١٨).

(٥) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦٥٢ (طبعة دار الكتب).

(٦) قسم شعراء مصر، ج ١، ص ١٧-٢٢.

أوردها ابن أبي طي مع القصيدة التي ذكرها العماد في الخريدة، إضافة ابن أبي طي عدة أبيات لم ترد في الخريدة.

قال ابن أبي طي: «وهنا العماد السلطان رحمه الله تعالى بقصيدة، منها:

فالحمد لله الذي إفضأه	حلوا {الجنأ} ^(١) ، عال السنأ، وضأحه
عاد العدو بظلمة من ظلمه	في ليل وَيَلْ قد خبا مصباحه
و{جنى} ^(٢) عليه جهله بوقوعه	في قبضة البازي فهيص جناحه ^(٣)
حمل السلاح إلى القتال، وما دري	أن الذي يبنى عليه سلاحه
أضحى يريد مواصليه صدوده	وغداً يبيد رثاءه مذاخه ^(٤)
إن أفسد الدين {الغلاة} ^(٥) بحنثهم	فالتاصر الملك الصالح صلاحه
قد كان عزمك للإله مصتماً	فيهم، فلاح، كما رأيت، فلاحه ^(٦)
وكانت بالساحل الأقصى، وقد	ساحت {بنخر} ^(٧) كم الفرنجة ساحه
فاعبر إلى القوم الفرات ليشربوا	الموت الأجاج، فقد طمس طفاحه
لتفك من أيديهم رهن الرها	عجلا، ويدرك ليلها إصباحه
وابغوا الحران الخلاص، فكم بها	حران قلب نحوكم مئتاحه
نجوا البلاد من البلاء بعد لكم	فالظلم باد في الجميع ضراحه
وامتفتحوا ما كان من مستغلق	فيها، فربكم لكم فتاحه

(١) في طبعة «دار الجليل». «الجنى». (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ٢٥٥).

(٢) في طبعة «دار الجليل». «جنا». (المصدر نفسه و الصفحة).

(٣) لم يرد هذا البيت في الخريدة.

(٤) لم يرد هذا البيت في الخريدة.

(٥) في الخريدة «العصاة». (العماد الأصفهاني: خريدة القصر، شعراء مصر، ج ١، ص ١٨).

(٦) لم يرد هذا البيت في الخريدة.

(٧) في الخريدة «بيحر». (العماد الأصفهاني: خريدة القصر، ج ١، ص ٢٠).

أنتم رجال الدّهر، بل فرسانه
فتاكسه، نساكه، ضراره
وأبو المظفر يوسف مطامه
وإذا اتدى في محفل فحيّه
ولذى الخلوم الطائشات رجاحه
نفاعه، مُناعه، مناحه
مطعائنه، مقدامه، جحجاحه
وإذا غدا في جحفل فوقأحه^(١)

أما القصيدة الثانية فقد نظمها ابن أبي طي للإشادة بدور «عز الدين فرخشاه»^(٢) في المعركة، فقال: «وكان لعزّ الدين فرخشاه في هذه الواقعة يد بيضاء»^(٣) وهو محبّ للفضل وأهله باعثٌ للخواطر على مدحه يبذله؛ «فنظمت» فيه قصيدة، منها:

نصر أنار الملككُم بزّهانه
ما أسعد الإسلام وهو مظفر
الملك مرفوع لكم مقداره
والدّهر لا يأتي بغير مرادكم
وكأنها لله في أحكامه
فخر ابنى أيوب، إن فخاركم
يكفى حودكم اعتقالاتهمه
وعلا للذة شائكم شأنه
وأبو المظفر يوسف سلطانه
والعدل موضوع بكم ميزانه
فهل القضاء لأجلكم جزيانه
فلك على إشاركم دوزانه
بذّ الملوك السابقين رهانه
فكأنها أشجانه أسجانه

(١) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦٥٢-٦٥٣.

(٢) هو الأمير فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب أبو السعد عز الدين: خاض العديد من المعارك مع عمه صلاح الدين، وولاه بعلبك في عام ٥٧٥هـ / ١١٨٠م. كان جواداً متواضعاً وشاعراً فصيحاً، وتوفي بدمشق في جمادى الأولى عام ٥٧٨هـ / ١١٨٢م. (العباد الأصفهاني: سنا البرق، ص ١٧٣، ٢١٠؛ أبو المحاسن: النجوم، ج ٦، ص ٩٣).

(٣) ألح العباد الأصفهاني إلي دور عز الدين فرخشاه الكبير في هذه المعركة بما ذكره عن منح صلاح الدين له خيمة سيف الدين غازي مكافأة له علي دوره في المعركة. (العباد الأصفهاني: سنا البرق، ص ٩٦؛ ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٥٣؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٧، ص ١٦٧؛ أبو المحاسن: النجوم، ج ٦، ص ٢٦).

الدِّينُ، عزَّ الدِّينُ، عزَّ بنصركم
 قد كان جيشكم كبحر زاخر
 فطمى لهلكهم عليهم بحركم
 فضَّل الملوك الأكرمين بفضله
 في فضله، في عدله، في حلمه
 هو في السماح، وفي اللقاء، عليه
 من آل {شاذي} ^(١) الشاذيين لمجده
 بيت من العلياء، مام، {سامق} ^(٢)
 يا سالب التيجان من أربابها
 والحمد ميال أنتم بُدَّاله

والكفر ذلَّ بعونك أعوانه
 واللابسُون جواشنا حيتانه
 أسا وغرق فلکم طوقانه
 فعلا زمانهم البهيج زمانه
 صدَّيقه، فاروقه، عثمانه
 هو في العفاف وفي التقى سلمانه
 بينه يتا عاليا بنيانه
 ينسى على كيوانها إيوانه
 ومن الثناء مصنوعة تيجانه
 والمال حمد أنتم خزانه ^(٣)

ثم تناول ابن أبي طي تطور أحوال ملوك الموصل و حلب بعد الهزيمة، واتفق في معظم روايته مع العماد الأصفهاني ^(٤)، فقال: «ثم إن صاحب الموصل أسرع عودته وواصل لذته، والحليون أوثقوا الأسباب، وغلقوا الأبواب، وسقط في أيديهم، حين أفرطوا في تعديهم، وتمثثوا للحصار، وخافوا من البوار، وتبلدوا وتلدوا، وتجادلوا ثم تجلدوا» ^(٥).

وذكر ابن أبي طي بعد ذلك بيتين من قصيدة ثالثة نظمها الشاعر الحلبي «ابن سعدان» للتهمة بانتصار صلاح الدين في موقعة تل السلطان، فقال: «وقال ابن سعدان الحلبي من جملة قصيدة يهنئ بها السلطان بهذه الكسرة:

(١) في طبعة «دار الجليل». «شاذي». (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ٢٥٦).

(٢) في طبعة «دار الجليل». «شاهق». (المصدر نفسه والصفحة).

(٣) المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٦٥٣ - ٦٥٤ (طبعة دار الكتب).

(٤) سنا البرق، ص ٩٦.

(٥) المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٦٥٣ - ٦٥٤.

وما شك قوم حين قمت عليهم
ولو لم تقدر تلك المقانِب لا غتدى
غداة ألقى الجمعان أنك غالب
لنفسك في نفس العدو «مقانب»^(١)»^(٢)

وصول شمس الدولة تورانشاه إلى الشام:

كان شمس الدولة تورنشاه بن أيوب قد غادر اليمن متوجهاً إلى أخيه السلطان صلاح الدين في بلاد الشام^(٣)، فوصل إليه - حسب تحديد العماد الأصفهاني - قبل معركة تل السلطان بثلاثة أيام^(٤)، وولاه بعد ذلك صلاح الدين دمشق في صفر عام ٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م^(٥). وقد اتفق ابن أبي طي مع العماد الأصفهاني في تاريخ وصول تورانشاه إلى الشام، وولايته لدمشق، وانفرد بتفاصيل باقى روايته عنه، فقال: «وكان وصول شمس الدولة إلى السلطان قبل وقعة الموصل وكسرتهم، وكان شمس الدولة {هو}^(٦)»

سبب الظفر، وأعطاه السلطان سراق سيف الدين صاحب الموصل بما كان فيه من الفرش والأثاث والآلات^(٧)، وولاه دمشق وأعمالها و الشام، وأمره أن يكون في وجه

-
- (١) المَقْنَبُ: جماعة الخيل والفرسان وهي دون المائة. (ابن منظور: لسان العرب، ج ١١، ص ٣١٢).
- (٢) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦٥٤.
- (٣) أوضحناها من قبل أثناء عرض كتابات ابن أبي طي عن فتح تورانشاه اليمن الأسباب التي دفعته إلى مغادرة اليمن.
- (٤) وذكر ابن الأثير أنه وصل في شهر رمضان، وأوضح ابن شداد وابن واصل أنه وصل بعد انتهاء المعركة في شهر ذي الحجة. (العماد الأصفهاني: سنا البرق، ص ٩٤، ٩٧؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٣٨؛ ابن شداد: التوادد، ص ٥٢؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ٤٨).
- (٥) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص ١٠٧؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٩؛ المقرئبي: المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٦٣.
- (٦) ساقطة من طبعة «دار الكتب». (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ٢٦٠ (طبعة دار الجليل) ج ١، ق ٢، ص ٦٦٥ (طبعة دار الكتب)).
- (٧) أورد المقرئبي ما ذكره ابن أبي طي عن منح صلاح الدين تورانشاه سراق ملك الموصل انظر: (السلوك، ج ١، ق ١، ص ٦١).

الفرنج لأن السلطان خاف من الحلبيين أن يكتبوا الفرنج كعادتهم^(١).

ثم أوضح ابن أبي طي أثار هزيمة ملوك الموصل و حلب في موقعة تل السلطان عليهم بعد ذلك ، واتفق مع العماد الأصفهاني فيما ذكره عن أحوال سيف الدين غازي ملك الموصل^(٢)، وانفرد بوصف الأحوال في حلب، فقال: «وأما سيف الدين فإنه امتدت به الهزيمة إلى «بزاعا»، فأقام بها حتى تلاحق به من سلم من أصحابه ثم خرج منها حتى قطع الفرات و صار إلى الموصل. و صار باقى عسكر حلب إلى حلب، في «سابع شوال»^(٣) في أقبح حال وأسوئه، عراة حفاة فقراء، يتلاومون على نقض الأيمان والعهود. وخاف أهل حلب من قصد السلطان لهم، فأخذوا في الاستعداد للحصار»^(٤).

ووقع ما كان يخشاه أهل حلب، حيث قرر صلاح الدين عقب انتصاره في موقعة تل السلطان حصار حلب، ولكنه ما لبث أن عدل عن رأيه مؤقتا، وفكر في تنفيذ مخطط آخر، رأى أن نتائجه تساعد مستقبلا في ملك حلب، وهذا المخطط انفرد بذكره ابن أبي طي، فقال: «وجاء السلطان وخيم عليها (حلب) أياما، ثم قال: الرأى أن نقصد ما حولها من الحصون و المعازل و القلاع فنفتحها، فإننا إذا فعلنا ذلك ضعفت حلب وهان أمرها فصوبوا رأيه»^(٥)^(٦).

فقام صلاح الدين بحصار ثلاثة من هذه الحصون، ونجحت قواته في ضمها إلى أملاك

(١) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦٦٥.

(٢) المصدر السابق، ص ٩٧.

(٣) لم يكن ابن أبي طي دقيقا في تحديد هذا التاريخ، حيث كانت معركة تل السلطان قد بدأت في «العاشر من شوال»، وتاريخ هذه الأحداث التي ذكرها ابن أبي طي وقعت بعد المعركة. (العماد الأصفهاني: سنا البرق، ص ٩٤؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٣٥).

(٤) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦٥٥.

(٥) أورد ابن كثير المخطط الذي ذكره ابن أبي طي. انظر: (البداية، ج ١٢، ص ٨١٨).

(٦) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦٥٥.

الدولة الأيوبية في الشام.

وكانت أولى هذه الحصون هي «بزاعة»، فحاصر صلاح الدين قلعتها، ثم تسلمها في الثاني والعشرين من شوال عام ٥٧١ هـ / ١١٧٦ م، وذلك حسب رواية العماد الأصفهاني وابن الأثير^(١)، وأوضح ذلك أيضا ابن أبي طي، وأضافت روايته اسم الوالي الذي عينه عليها صلاح الدين، فقال: «فتزلوا على بزاعة، فتسلمها بالأمان وولآها «عز الدين خشترين الكردي»^(٢).

ثم سار صلاح الدين إلى «منبج»، وملك قواته قلعتها عنوة من واليها «قطب الدين ينال بن حسان»، وذلك في آخر شوال من السنة، وكانت قلعة منبج تحتوي على الكثير من الذخائر التي صارت ملكا لصلاح الدين^(٣)، وقد أمدنا ابن أبي طي بوصف تفصيلي لهذه الذخائر، واتفق في تقدير جملة أموال ابن حسان مع العماد الأصفهاني^(٤) فقال: «لما ملك السلطان «منبج» وتسلم الحصن صعد إليه و جلس يستعرض أموال ابن حسان وذخائره؛ فكان في جملة أمواله ثلاثمائة ألف دينار، ومن الفضة والآنية الذهبية والأسلحة والذخائر ما يناهز ألفي ألف دينار»^(٥)، فَحَانَ من السلطان الثغاته فرأى على الأكياس والآنية مكتوبا «يوسف»، فسأل عن هذا الاسم، فقبل له: ولدُّ يُجِبُه ويؤثره اسمه يوسف كان

(١) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص ٩٨-٩٩؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٣٦.

وانظر أيضا: ابن العديم: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٧؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٢.

(٢) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦٥٥.

(٣) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص ٩٩؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٣٧؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٢-٤٣.

(٤) المصدر السابق، ص ٩٩. وانظر أيضا: أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦٥٥ (رواية العماد)؛ المقرئبي: المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٦١.

(٥) أورد المقرئبي نفس رواية ابن أبي طي التي وصف فيها حجم الفضة والآنية والأسلحة. انظر: (السلوك: ج ١، ق ١، ص ٦١).

يدخر هذه الأموال له. فقال السلطان: أنا يوسف وقد أخذت ما خُيِّب لي فتعجب الناس من ذلك»^(١).

وبعد سيطرة صلاح الدين على «منبج» سارت قواته نحو حصن «عزاز»، وهو يعد من أحصن القلاع وأمنعها، ولهذا اهتم صلاح الدين بحصاره، ودفعه إلى ذلك ما ذكره العماد الأصفهاني عن خوفه من قيام الأمراء في حلب بتسليمه إلى الصليبيين، فحاصره حصاراً شديداً^(٢).

وذكر ذلك أيضاً ابن أبي طي فقال: «ولما فرغ من منبج نزل على «عزاز» ونصب عليها عدة مجانيق، وجد في القتال، وبذل الأموال»^(٣).

وفي أثناء حصار صلاح الدين حصن عزاز تعرض لهجوم كاد أن يودي بحياته، نفذته قوات من فرقة الإسماعيلية التي يقودها «راشد الدين سنان». وقد عرض كثير من المؤرخين تفاصيل هذا الهجوم، ولكن دون أن يшиروا إلى أسبابه^(٤)، وانفرد ابن أبي طي بتوضيح المخطط الذي دبّره الأمراء في حلب مع ابن سنان لوقف زحف صلاح الدين عن القلاع القريبة من حلب.

فقال: «لما فتح السلطان حصن بزاعة ومنبج أيقن من بحلب بخروج ما في أيديهم من المعقل و القلاع، فعادوا إلى عادتهم في نصب الحبال للسلطان. فكاتبوا سناناً صاحب الحشيشية مرة ثانية، ورغبوه بالأموال والمواعيد، وحملوه على إنفاذ من يفتك بالسلطان

(١) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦٥٦.

(٢) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص ٩٩؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٣٧.

(٣) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦٥٦.

(٤) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص ١٠٠؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٣٧؛ ابن

شداد: المصدر السابق، ص ٥٢؛ ابن العديم: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٨؛ ابن واصل: المصدر

السابق، ج ٢، ص ٤٤؛ أبو الفداء: المصدر السابق، ج ٣، ص ٥٨؛ النويري: المصدر السابق، ج

٢٨، ص ٣٨٠؛ الخبلي: المصدر السابق، ص ١١٤.

فأرسل، لعنة الله، جماعة من أصحابه فجاءوا بزى الأجناد ودخلوا بين المقاتلة وباشروا الحرب و أبلوا فيها أحسن البلاء، وامتزجوا بأصحاب السلطان لعلمهم يجدون فرصة يتتهزونها^(١).

ثم وصف ابن أبي طي بأسلوبه تفاصيل الهجوم على صلاح الدين، واتفق في مضمون روايته اتفاقا كبيرا مع كتابات العماد الأصفهاني^(٢)، مما يؤكد أن كتاباته كانت مصدرا رئيسا لابن أبي طي في هذا الموضوع.

قال ابن أبي طي: «فبينما السلطان يوما جالس في خيمة «جاولي»^(٣)، والحرب قائمة و السلطان مشغول بالنظر إلى القتال، إذ وثب عليه أحد الحشيشية و ضربه بسكينة على رأسه، وكان رحمه الله محترزا خائفا من الحشيشية، لا ينزع الزردية عن بدنه ولا صفائح الحديد عن رأسه؛ فلم تصنع ضربة الحشيشي شيئا لمكان صفائح الحديد، وأحسن الحشيشي بصفائح الحديد على رأس السلطان {فَسَبِح}»^(٤) يده

بالسكينة إلى خد السلطان فجرحه وجرى الدم على وجهه؛ فتتعتع السلطان لذلك ولما رأى الحشيشي ذلك هجم على السلطان وجذب رأسه، ووضع على الأرض وركبه لينحره؛ وكان مَنْ حول السلطان قد أدركهم دهشة أخذت بعقولهم. وحضر في ذلك الوقت «سيف الدين يازكوج»، وقيل أنه كان حاضرا، فاخترط سيفه وضرب الحشيشي فقتله».

ثم قال ابن أبي طي: «وجاء آخر من الحشيشية أيضا يقصد السلطان، فاعترضه الأمير

(١) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦٥٩-٦٦٠.

(٢) المصدر السابق، ص ١٠٠-١٠١.

(٣) جاولي: هو مقدم الطائفة الأسدية. (ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٣٧).

(٤) في طبعة «دار الجليل». «فمد». (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ٢٥٨).

«{داود}»^(١) بن منكلان الكردي» وضربه بالسيف، وسبق الحشيشي إلى ابن منكلان فجرحه في «جبهته»^(٢)، و قتل ابن منكلان، ومات ابن منكلان من ضربة الحشيشي بعد أيام. وجاء آخر من الباطنية فحصل في سهم الأمير «علي بن أبي الفوارس» فهجم على الباطني ودخل الباطني فيه ليضربه فأخذه على تحت إبطه وبقيت يد الباطني من ورائه لا يتمكن من ضربه، فصاح «علي»: «اقتلوه واقتلوني معه، فجاء «ناصر الدين محمد بن شيركوه»، فطعن بطن الباطني بسيفه، و ما زال يُخضخضه فيه حتى سقط ميتا ونجا ابن أبي الفوارس»^(٣).

ثم قال ابن أبي طي: «وخرج آخر من الحشيشية. منهزما، فلقه الأمير شهاب الدين محمود، خال السلطان، فتنكب الباطني عن طريق شهاب الدين فقصده أصحابه و قطعوه بالسيوف. وأما السلطان فإنه ركب من وقته إلى سرادقه ودمه على خده سائل، وأخذ من ذلك الوقت في الاحتراس والاحتراز، و ضرب حول سرادقه {مثال «الخرگاه»^(٤) ونصب له في وسط سرادقه»^(٥) برجاً من الخشب كان يجلس فيه ويتنام، ولا يدخل عليه إلا مَنْ يعرفه، و بطلت الحرب في ذلك اليوم، وخاف الناس على السلطان. واضطرب العسكر وخاف الناس بعضهم من بعض، فألجأت الحال إلى ركوب السلطان ليشاهده الناس، فركب حتى سكن العسكر، وعاد إلى خيمته»^(٦).

وواصل صلاح الدين بعد ذلك حصاره لحصن عزاز حتى ملكه حسب رواية العماد

(١) ساقطة من طبعة «دار الجليل». (المصدر نفسه و الصفحة).

(٢) في رواية العماد: «جرحه في جنبه». (سنا البرق، ص ١٠٠).

(٣) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦٦٠.

(٤) الخركاه: وهي بيت من خشب مصنوع علي هيئة مخصوصة، ويغشى بالجوخ ونحوه، تحمل في السفر لتكون في الخيمة للمبيت في الشتاء لوقاية البرد. (القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٢، ص ١٣٨).

(٥) ساقطة من طبعة «دار الجليل». (أبو شامة: ج ١، ص ٢٥٨).

(٦) المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٦٦٠-٦٦١ (طبعة دار الكتب).

الأصفهاني في حادي عشر ذي الحجة عام ٥٧١ هـ / ١١٧٦ م^(١)، واتفق معه ابن أبي طي في ذلك، كما أضاف بعض التفاصيل حول أحوال عزاز قبل وبعد ملك صلاح الدين لها، فقال: «وأخذ في قتال عزاز فقاتلها مدة ثمانية و ثلاثين يوما حتى عجز من كان فيها و سأله الأمان، فتسلمها حادي عشر ذي الحجة، و سعد إليها و أصلح ما تهدم منها، ثم أقطعها لابن أخيه تقي الدين عمر. وكانت عزاز أولا «للجفينة» غلام نور الدين، فلما ملك السلطان منبج أخذها منه الملك الصالح وقواها لعله يحفظها من الملك الناصر، فلم يبلغ ذلك»^(٢).

حصار صلاح الدين لحلب (الحصار الثاني):

قرر صلاح الدين حصار حلب بعد أن نفذ مخططه الذي ذكره ابن أبي طي من قبل فاستولى على ثلاثة من أهم الحصون و القلاع التي تقع بالقرب منها، ودفعه إلى ذلك أيضا سبب آخر انفرد به ابن أبي طي، فقال: «ولما فرغ السلطان من أمر عزاز حقد على مَنْ بحلب لما فعلوه من أمر الحشيشية، فسار حتى نزل على حلب، خامس عشر ذي الحجة»^(٣).

ثم حدد ابن أبي طي الموقع الذي استقر فيه صلاح الدين، والخطة التي اتبعها أثناء الحصار. واتفق فيها مع العماد الأصفهاني^(٤)، فقال: «وضربت خيمته على «رأس الياروقية»^(٥) فوق جبل جوشن و جبي أموالها وأقطع ضياعها». وانفرد ابن أبي طي بباقي

(١) المصدر السابق، ص ١٠٢. وانظر أيضا: ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٣٧؛ ابن العديم: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٨-٢٩؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٥؛ المقرئزي:

المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٦١؛ الحنبلي: المصدر السابق، ص ١١٤.

(٢) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦٦١.

(٣) المصدر نفسه والصفحة.

(٤) المصدر السابق، ص ١٠٣. ولمزيد من التفاصيل حول حصار حلب انظر: (ابن الأثير: الكامل، ج

٩، ص ١٣٧؛ ابن العديم: زبدة الخلب، ج ٣، ص ٣٠٢٩).

(٥) اليازوقية: محلة كبيرة بظاهر حلب. (ياقوت: معجم البلدان، ج ٥، ص ٤٢٥).

تفاصيل الخطة، فقال: «وضيق على أهلها، ولم يفسح لسكره في مقاتلتها، بل كان يمنع أن يدخل إليها شيء أو يخرج منها أحد»^(١).

وتصادف في ذلك الوقت أن كان الأمير «سعد الدين كمشكين» - المدبر لأمر الملك الصالح إسماعيل - خارج حلب، ولهذا راسل صلاح الدين لكي يأذن له بالدخول، فأذن له، ورتب لتنفيذ ذلك بأن تم أخذ رهائن من حلب و من جانب صلاح الدين، وكان العما الأصفهاني أحد هؤلاء الرهائن، وكتب بعد ذلك تفاصيل هذه الأحداث^(٢)، وأخذها عن ابن أبي طي، وصرح باعتماده عليه، ولكنه لم يلتزم بنفس أسلوبه.

قال ابن أبي طي: «وكان سعد الدين كمشكين في «حارم»، وكانت إقطاعه في يد نوابه، وكان انتزعتها من يد أولاد الداية بعد أن عصى نائبها. وكان سبب خروجه إليها أن السلطان لما نزل على عزاز خاف كمشكين أن يتقل منها إلى حارم، فخرج إليها، فلما نزل السلطان على حلب ندم كمشكين على كونه خارجا في حارم، و خاف أن يجرى بين السلطان وبين الأمراء الحلبيين صلح فلا يكون له فيه ذكر ولا اسم.

فراسل السلطان يتلطف معه الحال ويقول: لو فسح لي في الدخول إلى حلب لسارعت في الخدمة وأصلحت الأمر على ما يرومه السلطان، وراسل أيضا الملك الصالح والأمراء بحلب يقول لهم: قد حصلت خارجا، وقد بلغني أمور ولا بدّ من طلبى من الملك الناصر ليأذن لي في الصيرورة إليكم، فإن الذى قد حصل عندي لا يمكننى الكلام فيه، فراسل الملك الصالح السلطان في الإذن له في الدخول إلى حلب، فأذن له؛ و طلبوا الرهائن منه، فأنفذ السلطان إليهم رهينة «شمس الدين ابن أبي المضاء الخطيب» و«العقاد كاتب

(١) تطابقت رواية المقرئ عن الخطة التي اتبعها صلاح الدين في حصار حلب مع كتابات ابن أبي طي.

انظر: (السلوك، ج ١، ق ١، ص ٦٢).

(٢) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦٦١.

(٣) المصدر السابق، ص ١٠٣ - ١٠٤.

الإنشاء»، و أنفذوا من حلب إلى السلطان رهينة «نصرة الدين ابن زنكي»^(١) ثم قال ابن أبي طي: «وحكي «العماد الكاتب» قال: لما حصلنا داخل حلب أخذنا برأى العدل ابن العجمي^(٢) وجعلنا في بيت ومنع منا غلماننا، ولم يُحضر لنا طعام ولا مصباح، وبثنا في أنكد عيش. وفي تلك الليلة دخل كمشتكين إلى حلب، فلما أصبحوا أحضرت لنا وابن أبي المضاء إلى الملك الصالح، وكان عنده ابن عمه

«عز الدين مسعود بن مودود»^(٣)، وجماعة من أرباب الدولة، وكان صاحب الكلام «العدل بن العجمي» فأخذ يتحدث بلثغته، ويترجم بلكنته، ويضرب صفحا عنى، ويوهم الجماعة أنى وأنى .

وما درى الغمرُ بأنى امرؤ أميز التبر من التبر
قد عارك الأموال حتى غدا بين الورى كالصارم العضب
قد راضه الدهر، فلو أمه بخطبه ما ريع لخطب^(٤)

ثم قال ابن أبي طي على لسان العماد الأصفهاني: «وعرضت نسخة اليمين علينا وصرفنا ولم يُلتفت إلينا». وأورد ابن أبي طي بعد ذلك تطور الموقف بعد دخول الأمير

(١) هو نصرة الدين إبراهيم بن نصرة الدين أمير أميران بن زنكي : ولاء الملك العادل نور الدين محمود « حران » في عام ٥٦٦ هـ / ٧٠ - ١١٧١ م . وكان الدكتور « محمد حلمي أحمد » محقق كتاب « الروضتين » قد خلط بينه وبين والده « نصرة الدين أمير أميران » ، وأعطي إشارة في الهامش للرجوع إلى الأحداث التي شارك فيها ، وهي تخص والده الذي توفي في عام ٥٦٠ هـ / ١١٦٥ م ، أي قبل وقوع هذه الأحداث بأكثر من عشر سنوات . (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٦٢ ، هامش (٢) ، طبعة دار الكتب ؛ ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ١٢٢ ؛ أبو المحاسن : النجوم ، ج ٥ ، ص ٣٦٧).

(٢) من الواضح أن ابن أبي طي أضاف هذا الجزء من رواية العماد الأصفهاني ، والذي كان « البنداري » قد أختصره من كتاب البرق الشامي للعماد الأصفهاني .

(٣) أضاف العماد الأصفهاني تفاصيل أخرى في هذا الجزء . انظر : (سنا البرق ، ص ١٠٤) .

(٤) أضاف ابن أبي طي هذا الجزء من رواية العماد الأصفهاني .

كمشتكين إلى حلب، وعودة العماد إلى صلاح الدين، فقال: «فلما صاروا إلى السلطان و أخبراه بما جرى في حقهما من الهوان، علم أن ذلك كان حيلة عليه حتى دخل كمشتكين إلى حلب، فأطلق «نصرة الدين» وقاتل أهل حلب. ولم يزل منازلًا لحلب إلى اتسلاخ سنة إحدى وسبعين وخمسةائة»^(١).

واستمر حصار صلاح الدين لحلب حتى العشرين من المحرم عام ٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م، ثم وافق على إنهاء الحصار وقبل عقد الصلح معه ومع ملك الموصل^(٢)، وهذه التفاصيل لم تصلنا من كتابات ابن أبي طي، ووجدنا له بعد ذلك ما ذكره عن قيام صلاح الدين بمنح قلعة عزاز إلى أخت «الملك الصالح إسماعيل»، واتفق في ذلك مع ابن الأثير^(٣)، وأضاف ما ذكره عن ذخائر عزاز، فقال: «لما تم الصلح وانعقدت الأيمان، عوّل الملك الصالح على مراسلة السلطان و طلب عزاز منه، فأشار الأمراء عليه بإنفاذ أخته، وكانت صغيرة، فأخرجت إليه فأكرمها السلطان إكراما عظيما، وقدم لها أشياء كثيرة، و أطلق لها قلعة عزاز وجميع ما فيها من مال وسلاح وميرة وغير ذلك»^(٤).

ويعقد الصلح بين صلاح الدين و ملوك حلب والموصل انتهى ما كان بينهم من صراع، والذي كان قد استمر لمدة أربعة أشهر متتالية منذ معركة «تل السلطان» في

العاشر من شوال عام ٥٧١ هـ م ١١٧٦ م، مروراً بملك صلاح الدين لأهم القلاع والحصون القريبة من حلب، تمهيدا لحصاره لها بعد ذلك، والذي استمر حتى عقد الصلح في المحرم عام ٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م.

(١) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦٦١-٦٦٣.

(٢) لمزيد من التفاصيل انظر. (ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٣٧؛ ابن العديم: زبدة الحلبي، ج ٣، ص ٣٠؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ٤٦).

(٣) المصدر السابق، ج ٩، ص ١٣٧. وانظر أيضا: ابن شداد: المصدر السابق، ص ٥٢؛ ابن العديم: المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٠؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٦.

(٤) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦٦٨.

وقد لاحظنا من خلال تحليل كتابات ابن أبي طي التي تناول فيها هذه الأحداث، ما ذكرناه من قبل طيلة هذا الفصل عن اهتمام ابن أبي طي بكتابات المؤرخ العماد الأصفهاني باعتباره مصدرا مهما من مصادر تاريخ الدولة الأيوبية، و لذلك اعتمد عليه كثيرا، وقد صرح ابن أبي طي باعتياده على كتاباته عند ذكره لأحد قصائده التي مدح فيها انتصار صلاح الدين في موقعة تل السلطان، كذلك اعتمد ابن أبي طي على كتابات العماد أثناء حصار صلاح الدين حلب لأنه كان أحد المشاركين في هذه الأحداث، هذا فضلا عن بعض الأحداث الأخرى التي أشرنا خلالها إلى اتفاق كتاباته مع كتابات العماد. كذلك أنفرد ابن أبي طي ببعض التفاصيل التي توفرت لديه خاصة الأحداث التي تتعلق بتاريخ حلب.

وتبقى من كتابات ابن أبي طي عن أحداث عام ٥٧١ هـ / ١١٧٦ م حدثان انفرد بذكرهما. وتناول في الحادثة الأولى، علاقة «شمس الدولة تورانشاه» - نائب صلاح الدين في دمشق^(١) - مع بلدتي «بصري»، و صرخد^(٢)، التابعتين لدمشق بعد وفاة أميرهما «صديق بن جولة»^(٣) في ذلك العام.

وتناول ابن أبي طي العلاقة بين تورانشاه والأمير الجديد الذي خلف صديق بن جولة في ولاية بلاده، فقال: «وفيها (٥٧١ هـ) قتل صديق بن جولة صاحب بصرى وصرخد، قتله ابن أخيه، وملك بعده بصرى وصرخد «شهورا»، فكاتبه شمس الدولة أخو السلطان

(١) تولى تورانشاه دمشق - حسب رواية العماد الأصفهاني - في صفر عام ٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م، وإن كان ابن أبي طي قد أورد هذه الحادثة في أحداث عام ٥٧١ هـ م ١١٧٦ م إلا أنه أشار بعد ذلك إلى أن تدخل تورانشاه في أمور بصري كان بعد عدة شهور من وفاة واليها في عام ٥٧١ هـ. (سنا البرق، ص ١٠٧).

(٢) صَرَخَدُ: بلد ملاصق لحوران من أعمال دمشق. (ياقوت: معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٠١).

(٣) هو شمس الدين صديق بن جاوي: كان من أوائل من كاتب صلاح الدين في مصر ليحثه على القدوم إلى بلاد الشام، كذلك كان أول من استقبله عند وصوله إلى بلاد الشام في ربيع الأول عام ٥٧٠ هـ م ١١٧٤ م، وأعلن ولائه له، وأضاف صلاح الدين «صرخد» إلى أملاكه (العماد الأصفهاني: سنا البرق، ص ٨١؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ١٩).

وحلف له على ما يريد من إقطاع؛ واقترح شمس الدولة أن يكتب

هو ما يريده ليحلف عليه، فأنفذ من بصرى نسخة يمين كتبها قاضي بصرى، وكان قليل المعرفة بالفقه و التصرف في القول، فلم يستقص فيها وجوه التأويل. فلما استوثق بها من شمس الدولة وخرج إليه تأول عليه شمس الدولة في اليمين وقبضه، ثم أقطعه عشرين ضيعة، ثم أخذها منه بعد أيام {بعد أن قتله} (١) (٢).

أما الحادثة الثانية التي أوردها ابن أبي طي في عام ٥٧١ هـ / ١١٧٦ م فتعلق بالعلاقة بين الأمير «سعد الدين كمشتكين» - المدير لأموال الملك الصالح إسماعيل في حلب - وإحدى البلاد التابعة لحلب، وهي منطقة «تل خالد» (٣)، فقال: «وفيها عصي الأمير غرس الدين قليج بتل خالد بسبب كلام جرى بينه وبين كمشتكين {فأنهد} (٤) إليه من حلب عسكريا فحاصروه أياما، وسلم الحصن، وصلحت حاله» (٥) (٦).

وبالنسبة لأحوال الدولة الأيوبية في بلاد الشام في عام ٥٧٢ هـ / ١١٧٧-٧٦ م، فقد وصلنا من كتابات ابن أبي طي ما يوضح انتهاء الصراع بين صلاح الدين و«راشد الدين سنان» مقدم فرقة الإسماعيلية في الشام، وأيضا بينه وبين «سيف الدين غازي» ملك الموصل و أمراء حصن كيفا وماردين.

(١) ساقطة من طبعة «دار الكتب». (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ٢٦٠ (طبعة دار الجليل)، ج ١، ق ٢، ص ٦٦٥ (طبعة دار الكتب)).

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٦٦٥ (طبعة دار الكتب).

(٣) تل خالد: قلعة من نواحي حلب. (ياقوت: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤١).

(٤) في طبعة «دار الجليل». «فأنفذ». (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ٢٦٠).

(٥) ابن العديم هذا الموضوع ضمن أحداث عام ٥٧٢ هـ، وأورد عنه مزيدا من التفاصيل. انظر: (زيدة الحلب، ج ٣، ص ٣١).

(٦) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦٦٥ (طبعة دار الكتب).

أولا - عقد الصلح بين صلاح الدين وراشد الدين سنان:

كان صلاح الدين قد قام بحصار حصن «مصياف»^(١)، أقوى قلاع الإسماعيلية، في المحرم عام ٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م، ردا على هجومهم عليه أثناء حصاره قلعة عزار في عام ٥٧١ هـ / ١١٧٦ م^(٢)، وفي ذلك الوقت تعرضت منطقة «البقاع» لهجوم صليبي بقيادة «ريموند الثالث» أمير طرابلس، و«بلدوين الرابع» ملك بيت المقدس،

فتصدى لهم الأمير شمس الدين ابن المقدم والى بعلبك، وأسر منهم نحو مائتين^(٣)، وأتى بهؤلاء الأسرى إلى صلاح الدين أثناء الحصار.

وقد أوضح العماد الأصفهاني وكان مصاحبا لصلاح الدين أثناء الحصار أن ذلك كان أحد الأسباب التي دفعته إلى إنهاء الحصار، فقال: «و أحضرهم (الأسرى) عندنا ونحن على مصياف، ولولا هذا الحادث لم يصرف عنها الأحداث»^(٤)، وفي رواية أخرى له أوردها أبو شامة قال العماد: «و أحضرهم عند السلطان وهو على حصار مصياف، فجدد منه إلى غزو الفرنج الانبعاث»^(٥).

ثم أورد أبو شامة عقب ذكره رواية العماد مباشرة جزءا من رواية ابن أبي طي عن هذا الموضوع، وعرض فيها ابن أبي طي لأحد الأسباب التي دفعت صلاح الدين إلى إنهاء الحصار وعقد الصلح. وقد بدت رواية ابن أبي طي عند الوهلة الأولى لقراءتها بعد رواية

(١) مصياف: أو مصياف حصن يقع بالقرب من طرابلس علي الساحل. (ياقوت: معجم البلدان، ج ٥، ص ١٤٤).

(٢) ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٣٩.

(٣) وليم الصوري: المصدر السابق، ج ٤، ص ١٩٤ - ١٩٥؛ العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص

١٠٥ - ١٠٦؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٣٩.

(٤) المصدر السابق، ص ١٠٥ - ١٠٦.

(٥) المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦٦٩ (رواية العماد).

العماد كأنها تكملة وتأييد لما ذكره العماد عن خبر الغزو الصليبي للبقاع وأثره على عقد الصلح بين صلاح الدين وسنان، وفي هذا إشارة إلى أن الجزء الذي اختصره أبو شامة من رأى ابن أبي طي كان قد تناول فيه أيضا ما ذكره العماد عن هذا الموضوع ثم شرح ابن أبي طي بأسلوبه، أهمية إنهاء صلاح الدين الحصار، واعتبر هذا السبب أهم الأسباب^(١)، فقال: «وهذا أكبر الدواعي في مصالحة السلطان لسنان وخروجه من بلاد الإسماعيلية لأن السلطان خاف أن تهيج الفرنج في الشام الأعلى وهو بعيد عنه فربما ظفروا من البلاد بطائل؛ فصالح سنانا وعاد إلى دمشق»^(٢).

وقد علق د. نظير سعداوي على تحليل ابن أبي طي لسبب إنهاء الحصار، وأشاد بموضوعيته في هذا الرأي لأنه لم يعمد إلى الإلحاء ذلك لفشل صلاح الدين في الحصار^(٣) ونعتقد أن ابن أبي طي كتب هذا الرأي لأنه اعتمد فيه على رأى العماد الأصفهاني الذي كان معاصرا لتلك الأحداث من ناحية، ومن ناحية أخرى لأنه حسب ما ذكرنا من قبل عن الكراهية التي كانت بين الشيعة الإمامية والإسماعيلية، ما كان سيكتب رأيا يشعر فيه الإسماعيلية بقوتهم.

ثانيا - وصول رسل الموصل وحصن كيفا وماردين:

تناولت كتابات ابن أبي طي في أحداث عام ٥٧٢ هـ / ٧٦ - ١١٧٧ م ما يشير إلى حسن العلاقات بين صلاح الدين وسيف الدين غازي ملك الموصل، و محمد بن قرا أرسلان نور الدين أمير حصن كيفا، وقطب الدين إيلغازي بن نجم الدين بن أرتق أمير ماردين، حيث أورد خبر وصول رسل من هذه الإمارات إلى دمشق حاملين الهدايا إليه،

(١) هناك أيضا أسباب أخرى لعقد الصلح بين صلاح الدين وسنان، لمزيد من التفاصيل انظر (العماد الأصفهاني: سنا البرق، ص ١٠٦؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٣٩؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ٤٨).

(٢) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦٦٩ - ٦٧٠.

(٣) المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين، ص ٦٠٥.

وكان هؤلاء الرسل قد وصلوا - كما أوضح العماد الأصفهاني - لتأكيد موافقة بلادهم على ما تضمنه عقد الصلح الذي أقره صلاح الدين مع الملك الصالح إسماعيل بعد إنهاء حصاره لحلب في المحرم من ذلك العام، حيث كان صلاح الدين قد جعل هذا الصلح صلحا عاما شمل هؤلاء الملوك والأمراء، وأرسل إليهم ليقروا بالموافقة على شروط الصلح^(١)، واتفق ابن أبي طي مع العماد اتفاقا كبيرا، فقال: «وصل رسول الموصل القاضي» عماد الدين بن كمال الدين بن الشهرزوري «بهدية وقود، فخرج الموكب إلى لقائه، و أكرمه «السلطان»^(٢) واحترمه ؛ وقدم بعده «رسول»^(٣) نور الدين قرا أرسلان و«رسول»^(٤) صاحب ماردين، بهدايا، واجتمعوا في دمشق، و خرجوا إلى السلطان بمصر فاعترضهم الفرنج، فأسر رسول صاحب الحصن^(٥) ولم يزل في الأسر حتى فتح السلطان بيت الأحزان فأطلقه و أحسن إليه»^(٦).

وتناولت كتابات ابن أبي طي في عامي ٥٧٣، ٥٧٤ هـ / ١١٧٩-٧٧ م أحداثا تتعلق بعلاقات صلاح الدين مع الصليبيين. فأورد أولا قصيدة للشاعر «ابن سعدان الحلبي» كتبها لمذبح غارة صلاح الدين على «عسقلان»، ولتهوين أمر هزيمته في موقعة الرملة.

وكان صلاح الدين قد غادر مصر متجها إلى بلاد الشام في جمادى الأولى عام ٥٧٣ هـ / ١١٧٧ م، وسار إلى «عسقلان» وأغار عليها، ولم يجد من يقاومه بها من الصليبيين، حيث

(١) المصدر السابق، ص ١٠٥، ١٢٢.

(٢) لم يكن ابن أبي طي دقيقا هنا عندما ذكر استقبال السلطان (صلاح الدين) رسول الموصل، لأن صلاح الدين كان في ذلك الوقت في مصر، وذلك حسب رواية العماد الأصفهاني الذي كان معه في مصر، وإنما كان «الملك المعصم شمس الدولة تورانشاه» نائب صلاح الدين في دمشق هو من قام باستقبال هؤلاء الرسل. (العماد الأصفهاني: سنا البرق، ص ١٢٢).

(٣) يعرف هذا الرسول «بالمظفري». (المصدر نفسه والصفحة).

(٤) هو «الضياء الرحبي». (المصدر نفسه والصفحة).

(٥) وأسر أيضا رسول أمير ماردين (المصدر نفسه والصفحة).

(٦) أبو شامة: المصدر السابق. ح ٢، ص ٦٩١-٦٩٢.

كانوا قد جمعوا الكثير من قوات مملكة بيت المقدس وإمارتى طرابلس وإنطاكية

وأقاموا حصارا قويا على حصن حارم التابع للملك الصالح إسماعيل، فسبى وأسر صلاح الدين الكثير منهم، وبعد نجاح غارته على عسقلان سار إلى «الرملة»، وهناك فوجئ بهجوم القوات الصليبية عليه، فأسروا وقتلوا الكثير من قواته، ونجح هو في العودة إلى مصر^(١).

قال ابن أبي طي: «وقال «ابن سعدان الحلبي» يمدح السلطان، ويذكر ما فعله على عسقلان، ويهون عليه أمر هذه الكسرة^(٢)، من قصيدة:

قرّبت من عسقلان كل نائبة	باتت تقل بوكاف من «الأسل» ^(٣)
فاض النجيع عليها وهي «مُجَلَّة» ^(٤)	فأصبحت مرتعا للخيل والإبل
قل للفرنجة الخنلى: رويدكم	بالثأر أو تخرج الشعري من الحمل
ترقبوها من الفوار طالعة	خوارق الأرض تمحورونق الأصل
كأنى بنواصيهنّ يقدهما	كاس من الجود عريان من النجل
حَسب العدايا صلاح الدين حسبهم .	أن يقرفوك بجرح غير مندمل
وهل يخاف لسان النحل ملتمس	مرّت على أصبعيه لذة العسل» ^(٥)

(١) ولیم الصوري: المصدر السابق، ج ٤، ص ٢١١-٢٢٢؛ العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص ١٢٩-١٣٢؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٤١-١٤٢؛ ابن شداد: المصدر السابق، ص ٥٣؛ ابن واصل:

المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٨-٦٢؛ المقرئزي: المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٦٤.

(٢) المقصود هنا كسرة «الرملة»، وقد حذف أبو شامة ما ذكره ابن أبي طي عنها.

(٣) الأسل: الرمح، ويطلق أيضا على نبات له أغصان كثيرة بلا ورق. (ابن منظور: لسان العرب، ج ١، ص ١٤٣-١٤٤).

(٤) محجلة: أي لا مرعى بها ولا كلاً. (المصدر، نفسه ج ١٣، ص ٣٩).

(٥) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٧٠٤.

ثم ذكر ابن أبي طي في أحداث عام ٥٧٤ هـ / ٧٨ - ١١٧٩ م المفاوضات التي جرت بين صلاح الدين والصليبيين بشأن هدم حصن «بيت الأحزان»^(١)، وانفرد

بتفاصيل هذه المفاوضات في هذا العام، حيث كان العماد الأصفهاني وابن الأثير قد أشاروا إلى هذه المفاوضات وذكروا المبلغ الذي عرضه صلاح الدين في مقابل هدم الحصن، عند ذكرهم خبر هدم صلاح الدين للحصن في ربيع الأول عام ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م^(٢).

قال ابن أبي طي عن مفاوضات هدم الحصن: «كانت الفرنج قد عمرت بيت الأحزان، وكان على المسلمين منه ضرر عظيم، فراسل السلطان الفرنج في هدمه فأجابوا أنه لا سبيل إلى هدمه إلا أن يعطينا ما غرنا عليه. فبذل لهم السلطان ستين ألف دينار فامتعوا فزادهم إلى أن بلغ مائة ألف دينار، وكان هذا الحصن «للداوية»^(٣) وكانوا {يقتنون}^(٤) من فيه بالأموال والنفقات لقطع الطرقات على قوافل المسلمين. فأشار تقي الدين {عمر}^(٥) على السلطان يبذل هذا المال لأجناد المسلمين ويخرج بهم إلى الحصن ويهدمه ففعل ذلك^(٦)»^(٧).

- (١) شيدت مملكة بيت المقدس هذا الحصن في الموضع الذي يعرف «بمخاضة يعقوب»، علي بعد عشرة أميال من بانياس، وبدأ بناؤه في أكتوبر ١١٧٨ م / ٥٧٤ هـ، واستمر حتى إبريل عام ١١٧٩ م / ٥٧٤ هـ، وشكل هذا الحصن خطراً كبيراً على المسلمين لوقوعه بالقرب من دمشق وغيرها من البلاد الإسلامية. (وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج ٤، ص ٢٢٧؛ العماد الأصفهاني: سنا البرق، ص ١٥٩؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٤٧؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ٧٢).
- (٢) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص ١٧٠؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٤٨؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢، ص ٨٢؛ المقرئ: المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٦٩.
- (٣) أكد ذلك «وليم الصوري» وأوضح أن سيطرة «فرسان المعبد» (الداوية) على هذا الحصن كان بحكم سيطرتهم على كل المنطقة المحيطة به. (الحروب الصليبية، ج ٤، ص ٢٣٧).
- (٤) في «طبعة دار الجليل». «يقوون». (أبو شامة: الروضتين، ج ٢، ص ٨).
- (٥) ساقطة من «طبعة دار الجليل». (المصدر نفسه والصفحة).
- (٦) أورد ابن كثير معظم رواية ابن أبي طي عن مفاوضات هدم حصن بيت الأحزان في عام ٥٧٤ هـ / ١١٧٩ - ٧٨ م. انظر: (البداية، ج ١٢، ص ٨٢٧ - ٨٢٨).
- (٧) أبو شامة: المصدر السابق، ج ٢، ق ١، ص ٢١ (طبعة دار الكتب).

ووصلنا من كتابات ابن أبي طي في عام ٥٧٥ هـ / ٧٩ - ١١٨٠ م بعض أحداث الدولة الأيوبية في الشام، ومن ذلك علاقة السلطان صلاح الدين مع سلاجقة آسيا الصغرى، وكذلك أحد المعارك التي انتصر فيها على الصليبيين، وأخيرا أشار ابن أبي طي إلى أحوال حلب.

علاقة صلاح الدين مع سلاجقة آسيا الصغرى:

كان السلطان السلجوقي « قليج أرسلان »^(١)، قد راسل صلاح الدين في طلب قلعة رَعْبَان^(٢) وحصن « كَيْسُون »^(٣)، باعتبار أنها كانا ملكا له قبل استيلاء الملك العادل نور الدين محمود عليهم، فرفض صلاح الدين طلبه، فقام قليج أرسلان بحصار قلعة رعبان.

وقد عرض «العماد الأصفهاني» تفاصيل هذا الجزء^(٤)، واتفق معه ابن أبي طي في ذكر هذه الأحداث اتفاقا كبيرا، فقال: «واتصل بالسلطان أن قليج أرسلان قد طمع في أخذ رَعْبَان وكَيْسُون، فلما دخل دمشق وصله رسوله يطلبها منه ويدعى أن نور الدين بن زنكى اغتصبها منه، وأن الملك الصالح قد أنعم عليه بهما، فاغتاظ السلطان وزجر الرسول وتوعد صاحبه، فعاد الرسول وأخبر قليج أرسلان فغضب وسير عسكريا إلى رعبان فحاصرها؛ وسمع السلطان فندب تقي الدين عمر في ثمانمائة فارس فسار. فلما قارب رَعْبَان أخذ معه جماعة من أصحابه مقدار مائتى فارس، و تقدم عسكريه، وسار حتى

(١) هو قليج أرسلان الثاني بن مسعود بن قتلش بن سلجوق السلجوقي: كان حاكما لقونية وملطية وغيرها من بلاد آسيا الصغرى، واستمرت مدة حكمه نحو تسع وعشرين سنة، وتوفي في عام ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م. (ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٢٢٢؛ معيد عاشور: الحركة الصليبية، ج ٢، ص ١٠٣٠).

(٢) رَعْبَان: قلعة بين حلب وشميساط. (ياقوت: معجم البلدان، ج ٣، ص ٥١).

(٣) كيسون: ويقال لها أيضا « كَيْسُوم » وهي قرية من أعمال شميساط، وبها حصن كبير. (المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٩٧).

(٤) المصدر السابق، ص ١٦٧. وانظر أيضا: ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٤٨؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٩.

أشرف على عسكر قليج أرسلان ليلا فرأهم قد سدوا الفضاء»^(١).

ثم عرض ابن أبي طي أحداث المعركة، وانفرد بكتابتها، واختصر هذه الأحداث كثير من المؤرخين الذين كتبوا عن المعركة^(٢)، فقال: «وهم {فَادُونَ}»^(٣)، آمنون، وَاِدْعُونَ فقال تقي الدين لأصحابه: هؤلاء على ما ترون من الطمأنينة والأمن والغفلة، وقد رأيت أن تحمل الساعة فيهم بعد أن نتفرق في جوانب عسكرهم ونصيح فيهم فإنهم لا يثبتون لنا فأجابوه إلى ذلك فأنفذ واحدا من أصحابه إلى باقى عسكره وأمرهم أن يتفرقوا أطلابا وأن يجعل في كل طُلب قطعة من الكوسات والبوقات فإذا سمعوا الضجة ضربوا بكوساتها و بوقاتهم، وجدوا في السير حتى يلحقوا به ففعلوا ما أمرهم ثم إنه حمل في عسكر قليج أرسلان وصرخ أصحابه في جوانبه وكان عدة عسكر قليج أرسلان «ثلاثة آلاف فارس»^(٤) فلما سمعوا الضجة وحسن الكوسات والبوقات،

وشدة وقع حوافر الخيل و جلبة الرجال واصطكاك أجرام الحديد، هالهم ذلك و ظنوا أنهم قد فوجئوا بعالم عظيم فلم يكن لهم إلا أن جالوا في كواثب خيولهم عريا، وطلبوا النجاة، وأخذتهم السيوف، فتركوا خيامهم وأنقلهم بحالها وأكثر تقي الدين فيهم القتل والأسر، وحصل على جميع ما تركوه فلما أصبح جمع المأسورين ومن عليهم بأموالهم و كراعتهم، وسرحهم إلى بلادهم». ثم قال: «وقيل إن الخبر بهذه الكسرة وصل السلطان في

(١) أبو شامة: المصدر السابق، ج ٢، ق ١، ص ٢٥ (طبعة دار الكتب).

(٢) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص ١٦٧-١٦٨؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص

١٤٨؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٩.

(٣) في «طبعة دار الجليل». «قَارُونَ». (أبو شامة: المصدر السابق، ج ٢، ص ٩).

(٤) اختلف تقدير ابن أبي طي لحجم قوات قليج أرسلان اختلافا كبيرا عن غيره من المؤرخين فذكر

العماد «أن قواته بلغت عشرين ألفا، وذكر «ابن الأثير» أنها كانت ثلاثين ألفا. وفي حقيقة الأمر

فنحن نميل إلى ترجيح رأي ابن أبي طي لأنه توفرت لديه معلومات أكثر عن تفاصيل المعركة، ولأنه

من غير المتوقع أن يهزم «ألف» عشرين أو ثلاثين ألفا». (العماد الأصفهاني: سنا البرق، ص ١٦٨

؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٤٨).

اليوم الذي كسر فيه السلطان الفرنج على «مرج عيون» فتوافت البشارتان إلى البلاد^(١)»^(٢).

كذلك أمدنا ابن أبي طي في كتاباته عن أحداث عام ٥٧٥ هـ / ٧٩ - ١١٨٠ بتفاصيل إحدى المعارك التي خاضها صلاح الدين مع الصليبيين، وهي:

معركة مرج عيون:

بدأ ابن أبي طي كتاباته عن معركة «مرج عيون»^(٣) بذكر قصيدة أرسلها الشاعر «ابن التعاويذي»^(٤) إلى صلاح الدين، ليهته بنصره في هذه المعركة.

وقد تبين لنا من خلال قراءة هذه القصيدة ومقارنتها مع نظيرتها التي أوردتها «ياقوت في معجم الأدباء»، خلو هذه القصيدة من أية إشارة تدل على أنها كتبت - كما

ذكر ابن أبي طي - عن موقعة «مرج عيون»^(٥)، وأشار إلى هذا الخطأ الذي وقع فيه ابن أبي طي المؤرخ أبو شامة عند ذكره رواية ابن أبي طي^(٦).

(١) اتفقت كتابات ابن كثير مع الجزء الأخير من رواية ابن أبي طي الذي وصف فيه هزيمة قوات قلعج أرسلان، وفي ذكره اتفاق توقيت هذه المعركة مع معركة مرج عيون. انظر: (البداية، ج ١٢، ص ٨٣١).

(٢) أبو شامة: المصدر السابق، ج ٢، ق ١، ص ٢٦.

(٣) مَرْجُ عَيْون: يقع بسواحل الشام بين نهر اللبظاني والمجري الأعلى لنهر الأردن. (ياقوت: معجم البلدان، ج ٥، ص ١٠١؛ رنسيان: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٦٧٧).

(٤) هو محمد بن عبيد الله أبو الفتح المعروف بابن التعاويذي ويسبط ابن التعاويذي: عمل كاتباً بديوان الإقطاع ببغداد، وكان شاعر العراق في وقته، وله ديوان شعري يقع في مجلدين وكتاب «الحجبة والحجاب» يقع في مجلد كبير. توفي في شوال عام ٥٨٣ هـ / ٨٧ - ١١٨٨ م. (ياقوت: معجم الأدباء، ج ٥، ص ٣٦٥ - ٣٦٦، ٣٧٤).

(٥) ياقوت: معجم الأدباء، ج ٥، ص ٣٦٦ - ٣٦٨.

(٦) المصدر السابق، ج ٢، ق ١، ص ٢٧.

قال ابن أبي طي: «وقد مدح ابن التعاويذي السلطان الملك الناصر بقصيدة أنفذها إليه من بغداد^(١) يذكر فيها وقعة «مرج عيون»، يقول فيها:

كاد الأعادى أن يُصيّك كَيْدُهَا لو لم تكذّبك برأيها المأفون
تُخْفِي عَادَاتِهَا وراءَ بَشَاشَةِ فَتَشِفُّ عَنْ نَظَرِهَا مَشْفُون
دَفَنْتَ حَبَائِلَ مَكْرَهَا فَرَدَدْتَهَا {تدوي}^(٢) بغيظ صُدُورِهَا المَذْفُون
وَعَلِمْتَ مَا أَخْفَوْا كَأَن قُلُوبِهِمْ أَفَصَّتْ إِلَيْكَ بِسِرِّهَا المَخْزُون
كَمَنُوا، وَكَم لَكَ مِنْ كَمِينِ سَعَادَةِ فِي الغَيْبِ، يَظْهَرُ مِنْ وَرَاءِ كَمِينِ^(٣)
فَهَوَّتْ نُجُومٌ سُعُودِهِمْ وَقَضَى لَهُمْ بِالنَّخْسِ «طائرهم بمرج عيون^(٤)»^(٥)

ثم تناول ابن أبي طي معركة «مرج عيون»، واتفق مع «العماد الأصفهاني» في ذكر الأحداث التي سبقت المعركة^(٦)، فقال: نزل السلطان على «تل القاضي» ببابياس على المرج الذي يعرف «بمرج عيون»، وأنفذ في ثاني المحرم قطعة من عسكره مع «عز الدين فرخشاه» لشن الغارة على بلاد الفرنج فلما أصبح ركب {يستوكف}^(٧) أخبار فرخشاه. فما هو إلا أن خرج من الخيم حتى رأى أغنام بانياس قد أقبلت من المراعى هاجّة على وجوهها من الغياض والأودية فقال: هذه غارة فأمر بلبس السلاح والاستعداد للحرب،

(١) كان ابن التعاويذي قد مدح السلطان صلاح الدين بثلاث قصائد أنفذها إليه من بغداد، وكان من ضمنهم هذه القصيدة التي كتبها ليعارض بها قصيدة «أبي المنصور علي بن الحسن المعروف بصردر» (ياقوت: معجم الأدباء، ج ٥، ص ٣٦٦).

(٢) في معجم الأدباء: «تَبَلَّى». (المصدر نفسه، ص ٣٦٨).

(٣) لم يرد هذا البيت في القصيدة التي أوردها ياقوت. (المصدر نفسه، ص ٣٦٦-٣٦٨).

(٤) هنا خطأ ابن أبي طي حيث ختم ياقوت وأبو شامة هذا البيت بجملة «طائر جندك اليمون» انظر:

(ياقوت: معجم الأدباء، ج ٥، ص ٣٦٨؛ أبو شامة: الروضتين، ج ٢، ق ١، ص ٢٧).

(٥) أبو شامة: المصدر السابق، ج ٢، ق ١، ص ٢٧.

(٦) المصدر السابق، ص ١٦٤-١٦٥.

(٧) في «طبعة دار الجليل». «يستوقف». (أبو شامة: الروضتين، ج ٢، ص ١٠).

فوصل بعض الرعاة فأخبر أن الفرنج قد عبروا وصاروا قريبا منه على هيئة «المتغفلة»^(١)، فسار حتى أشرف على الفرنج فإذا هم في ألف رمح»^(٢).

وعرض ابن أبي طي بعد ذلك ملخصا لأحداث المعركة ونتائجها^(٣)، فقال: «فأخذتهم السيوف والدبابيس حتى فرشت الأرض منهم، وألقى جماعة منهم سلاحهم، وسلموا أنفسهم أسارى ونجا «ملك الفرنج»^(٤) «هنفري»^(٥) هاربا، ويقال أنه {وقف} به فرسه فحمله أحد خيالاته على ظهره، ثم رجع السلطان إلى معسكره وسيفه يقطر دما وجلس لاستعراض الأسارى»^(٦).

كذلك وجدنا لابن أبي طي في أحداث عام ٥٧٥ هـ / ٧٩ - ١١٨٠ م، كتابات تتعلق بأخبار حلب، عرض فيها لحادثة:

-
- (١) المتغفلة: أغفلت الرجل: أصبته غافلا، ويقال: تغفلته واستغفلته أي تحينت غفلته. (ابن منظور: لسان العرب، ج ١٠، ص ٩٥-٩٦).
- (٢) أبو شامة: المصدر السابق، ج ٢، ق ١، ص ٢٨.
- (٣) لمزيد من التفاصيل حول معركة مرج عيون انظر: (وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج ٤، ص ٢٣٣ - ٢٣٦؛ العماد الأصفهاني: سنا البرق، ص ١٦٥-١٦٦؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٤٧).
- (٤) هو الملك بلدوين الرابع ملك بيت المقدس (١١٧٤ - ١١٨٥ م / ٥٦٩ - ٥٨٠ هـ).
- (٥) هو همفري دي تورن Humphrey of Toron أمير حصن بانياس: وقد خلط هنا ابن أبي طي بينه وبين بلدوين الرابع ملك بيت المقدس، حيث كان «همفري» قد توفي قبل موقعة مرج عيون بنحو شهرين، في إبريل عام ١١٧٩ م / ذي القعدة عام ٥٧٤ هـ، متأثرا بجراحه من جراء هزيمته في أحد المعارك أمام قوات صلاح الدين، وهذه المعركة سوف نتناولها في الصفحة التالية. (وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج ٤، ص ٢٣٠ - ٢٣١؛ سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٥٩٨).
- (٦) في «طبعة دار الجليل». «وقع». ونعتقد أن هذا المعنى هو الأصح لاستقامة المعنى. (أبو شامة: الروضتين، ج ٢، ص ١٠).
- (٧) المصدر نفسه، ج ٢، ق ١، ص ٢٨ (طبعة دار الكتب).

حريق الأسواق في حلب:

وصلتنا رواية قصيرة لابن أبي طي عن هذا الموضوع، أشار فيها إلى مسئولية فرقة الإسماعيلية في حلب عن وقوع هذا الحريق، وأوضح الآثار السيئة التي ترتبت عليه بعد

ذلك. فقال: «و فيها أحرقت الإسماعيلية أسواق حلب وافتقر أهلها بذلك، وكانت إحدى «الجوائح»^(١) التي أصابت حلب وأهلها»^(٢)،^(٣).

أما بالنسبة لكتابات ابن أبي طي عن أحوال الدولة الأيوبية في الشام في عام ٥٧٦ هـ / ١١٨٠ م، فقد وصلنا كتاباته عن علاقات السلطان صلاح الدين مع ملك أرمينية ومع الخلافة العباسية.

علاقة صلاح الدين مع ملك أرمينية:

كانت العلاقة بين السلطان صلاح الدين و«ابن لاون» ملك أرمينية قد ساءت في هذا العام، وذلك بسبب كثرة شكاوى «التركيان» من ابن لاون، حيث كان قد سمح لهم بالرعى في أراضيهم، ثم غدر بهم وأسرهم وأخذ أموالهم^(٤)، وقيل أيضا أنه كان بسبب شكوى «قلج أرسلان» من الأرمن واستغاثته لذلك بصلاح الدين^(٥). فامتدت لذلك غارات السلطان صلاح الدين في نواحي أرمينية، فقام ابن لاون بإحراق أحد أهم حصونه حتى لا يقع في أيدي صلاح الدين، ولكنه لم ينجح في نقل ما به من ذخائر، فاستولى عليها صلاح الدين^(٦).

(١) الجوائح: مفردا جائحة، وهي الشدة العظيمة التي تجتاح المال. (ابن منظور: لسان العرب، ج ٢، ص ٤١٠).

(٢) لمزيد من التفاصيل انظر: (زبدة الحلب، ج ٣، ص ٣٨-٣٩).

(٣) أبو شامة: المصدر السابق، ج ٢، ق ١، ص ٤٦.

(٤) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص ١٧٧؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٥١.

(٥) ابن شداد: المصدر السابق، ص ٥٤.

(٦) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص ١٧٧؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٥١؛ ابن

واصل: المصدر السابق، ج ٢، ص ٩٨-١٠٠؛ الحنبلي: المصدر السابق، ص ١١٩.

وقد بدأت رواية ابن أبي طي بوصف هذه الذخائر وتقدير قيمتها، ثم عرض تفاصيل المفاوضات التي دارت بين صلاح الدين و ابن لاون، وانفرد فيها بإضافة البند الخاص بالأسرى الصليبيين، حيث كان العماد الأصفهاني وابن الأثير قد أوضحا أن المفاوضات

تركزت على الإفراج عن الأسرى التركمان^(١). قال ابن أبي طي: «ووجد المسلمون في أرضها صهريجاً مملوءاً آلات نحاس وفضة وذهب لها زمن طويل، وبذل للسلطان جملة من المال وأنه يطلق من عنده من الأسارى فلم يرض السلطان بما بذله، فزاد في المال وأنه يشتري خمسمائة أسير من بلاد الفرنج و يعتقهم، فأجاب السلطان وأخذ منهم رهينة على ذلك^(٢)»^(٣).

علاقة صلاح الدين مع الخلافة العباسية:

أشرنا فيما سبق أثناء عرض كتابات ابن أبي طي في عام ٥٧٠ هـ / ١١٧٥ م إلى ما ذكره عن العلاقة بين الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله (٥٦٦ - ٥٧٥ هـ / ١١٧٠ - ١١٨٠ م) والسلطان صلاح الدين، وأوضحنا من خلال روايته مضمون التقليد الذي أرسله الخليفة إلى صلاح الدين، وفيه أقر ولايته لمصر وبلاد الشام.

وبعد وفاة الخليفة المستضيء بأمر الله في شوال عام ٥٧٥ هـ / ١١٨٠ م، وولاية ابنه الخليفة «الناصر لدين الله» (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ / ١١٨٠ - ١٢٢٥)، استمرت العلاقة بين السلطان صلاح الدين والخلافة العباسية في عهده على ما كانت عليه من قبل فأعلن صلاح الدين طاعته للخليفة، وأقام الخطبة باسمه في جميع بلاد الدولة الأيوبية^(٤) كذلك أقر الخليفة

(١) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص ١٧٧؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٥١.

(٢) أورد كل من: التويري و ابن كثير نفس رواية ابن أبي طي عن هذا الموضوع. انظر: (التويري: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٣٩٦؛ ابن كثير: البداية، ج ١٢، ص ٨٣٤).

(٣) أبو شامة: المصدر السابق، ج ٢، ق ١، ص ٤٨.

(٤) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص ١٧٤؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢، ص ٩٢.

ولاية السلطان صلاح الدين وأرسل إليه التقليد والخلع العباسية في شهر رجب عام ٥٧٦ هـ / ١١٨٠ م^(١).

وقد انفرد ابن أبي طي بوصف تفصيلي لهذه الخلع، فقال: «وكانت هذه أول خلعة قدمت من الإمام الناصر على الملك الناصر وكانت: ثوب أطلس أسود واسع الكم مذهب، وبقيار أسود مذهب، وطيلسان أسود مذهب، ومشدة سوداء مذهب، وطوق، وتخت، و سرفسار، وجواد «كميت» من مراكب الخليفة عليه سرج أسود، وسلال أسود و طوق مجوهر و قسبة ذهب، و علم أسود وعدة خيول وبقج. وركب السلطان بالخلعة وزينت له دمشق وكان يوما عظيما»^(٢).

وفي عام ٥٧٧ هـ / ١١٨٢ - ٨١ م، توفي ملك حلب «الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود بن زنكي»، وكذلك رزق السلطان صلاح الدين بولدين. وهذه الأحداث وصلتنا من كتابات ابن أبي طي عن أحداث هذا العام، وفي اعتقادنا أن أبا شامة اهتم بذكر هذه الروايات عنه لأنه كان له رأى مختلف حول أسباب وفاة الملك الصالح انفرد به، ولأن ابن أبي طي أيضا كان مهتما أثناء كتابة «سيرة صلاح الدين» بتدوين أخبار حياته الخاصة أيضا.

وفاة الملك الصالح إسماعيل:

توفي الملك الصالح إسماعيل كما ذكر «ابن الأثير» في رجب عام ٥٧٧ هـ / ١١٨١ م، على أثر إصابته بمرض شديد^(٣)، وقد أوضح ابن شداد وابن العديم وغيرهم من المؤرخين

(١) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص ١٨٠-١٨١؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢، ص ٩٥؛

ابن كثير: المصدر السابق، ج ١٢، ص ٨٣٦؛ المقرئ: المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٧٠.

(٢) أبو شامة: المصدر السابق، ج ٢، ق ١، ص ٥٨.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٥٣؛ الباهر، ص ١٨١-١٨٢.

أنه كان مريضاً «بالقولنج» وأدى ذلك إلى وفاته^(١).

ولكن كان لابن أبي طي رأياً مخالفاً لهذا الرأي حيث أكد أن الملك الصالح إسماعيل لم تكن وفاته طبيعية وأنه دُس إليه السم، ولم يتأكد ابن أبي طي من الشخص الذي قام بذلك ولا من كيفية دس السم إليه، فاتهم في ذلك أولاً أحد أمراء نور الدين محمود وهو الأمير «علم الدين سليمان بن جندر»^(٢) وذكر أنه دس السم إليه أثناء خروجهما للصيد واتهم أميراً آخر وهو «ياقوت الأسدي» فقال: «كان سبب موته أن «علم الدين سليمان {من}»^(٣) جندر» سقاه سماً في عنقود عنب وهو في الصيد. وقيل: الذي سقاه «ياقوت الأسدي» في شراب، وقيل أنه أطعمه «خُشْكَنانكة»^(٤) وهو في الصيد^(٥). ثم قال ابن أبي طي: {ودفته}^(٦) بالمقام الكبير الذي في القلعة، وحزن الناس له حزناً عظيماً. وكان من أحسن الناس صورة وألبقهم أعطافاً^(٧).

- (١) ابن شداد: المصدر السابق، ص ٥٥؛ ابن العديم: المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٠. وانظر أيضاً: ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٠٦؛ أبو الفداء: المصدر السابق، ج ٣، ص ٦٣؛ الذهبي: العبر، ج ٣، ص ٧٣؛ أبو المحاسن: المصدر السابق، ج ٦، ص ٨٩؛ العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٤، ص ٢٥٨.
- (٢) علم الدين سليمان بن جندر: من أمراء نور الدين محمود، شاركه في حصار حارم في عام ٥٥٩هـ/ ١١٦٤م وولاه نور الدين قلعة «عم». وكان من أصدقاء صلاح الدين، وولاه قلعة عزاز في عام ٥٧٩هـ/ ١١٨٣م وولاه أيضاً «درساك» في عام ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م. (ابن الأثير: الباهر، ص ١٢٦؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج ٣، ص ٤٥، ٧١، ٩٠، ١٠٦).
- (٣) في طبعة «دار الجيل». «سليمان بن» وهذه الطبعة هي الأصح لأن ابن العديم ذكره باسم سليمان بن جندر كما أشرنا في ترجمته. (أبو شامة: الروضتين، ج ٢، ص ٢١).
- (٤) خُشْكَنانكة: يعرف في مصر بالخشتان، وهو نوع من الحلوى مصنوع من الرقاق علي شكل حلقة مجوفة يملأ وسطها باللوز أو بالفستق. (القلقشندي: صبح الأعشي، ج ٣، ص ٥١٠، هامش (١)).
- (٥) أورد كل من النويري وابن كثير نفس رواية ابن أبي طي عن سبب وفاة الملك الصالح إسماعيل انظر: (ابن كثير: البداية، ج ١٢، ص ٨٣٨؛ النويري: نهاية الأرب، ج ٢٧، ص ١٧١).
- (٦) في طبعة «دار الجيل». «ودفن». وهذه الطبعة هي الأصح لاستقامة المعنى. (أبو شامة: الروضتين، ج ٢، ص ٢١).
- (٧) المصدر نفسه، ج ٢، ق ١، ص ٦٥ (طبعة دار الكتب).

وفي الحقيقة فقد وقفنا كثيرا أمام رأى ابن أبي طي هذا، ولم نجد ما يؤيد أو يعارض روايته بين المؤرخين السابقين عليه أو المعاصرين له، فكما ذكرنا من قبل لم يجدد ابن الأثير مرض الملك الصالح، وكان ابن شداد وابن العديم أول من ذكر إصابته بالقولنج، ولفقت نظرنا أيضا أن «ابن كثير» - وهو من المؤرخين اللاحقين بابن أبي طي - وكان قد ذكر نفس رواية ابن أبي طي، ربط بين إعطاء الملك الصالح السم ومرضه بعد ذلك بالقولنج^(١).

ونظرا لأن روايات ابن أبي طي عن حلب تعد من الروايات المهمة، لانفراده في معظم الأحيان بذكر الكثير من أحداثها، وذلك بحكم نشأته وإقامته فيها وإطلاعه على المصادر التي لم تتوافر لغيره، وجدنا أنه لا بد لنا لكي نحقق رأيه أن نقرأ الأحداث التي وقعت قبل وبعد وفاة الملك الصالح إسماعيل، وقد لفت انتباهنا الأمير «علم الدين سليمان ابن جندر» - وهو أحد المتهمين في رواية ابن أبي طي بقتل الملك الصالح - فقد ذكر عنه «ابن العديم» ما يدعو لإثارة الشك حوله بعد وفاة الملك الصالح، حيث كان الملك الصالح قد أوصى قبل وفاته بإسناد ولاية حلب إلى ابن عمه ملك الموصل «عز الدين مسعود بن مودود»، ووقع اختياره عليه لما كان يتمتع به من قوة، يستطيع بها أن يحمي حلب من هجوم السلطان صلاح الدين وفي الوقت نفسه رفض الملك الصالح اقتراحا بإسناد ولاية حلب إلى ابن عمه «عماد الدين مودود» أمير سنجار، وذلك بسبب ضعف قواته، وعدم قدرته على الصمود أمام هجمات صلاح الدين على حلب^(٢).

وفي الوقت الذي قام فيه معظم الأمراء في حلب بتنفيذ وصية الملك الصالح بعد وفاته وقاموا بأداء يمين الولاء للملك «عز الدين مسعود» ملك الموصل، قام الأمير علم الدين سليمان بن جندر هو وآخرين بمراسلة الأمير «عماد الدين مودود» أمير سنجار سرا لدعوته إلى حلب، وأخذ يبأطل في حلف يمين الولاء للملك عز الدين مسعود، ولما تأخر

(١) ابن كثير: المصدر السابق، ج ١٢، ص ٨٢٨.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٥٣ - ١٥٤؛ ابن العديم: المصدر السابق، ج ٣، ص ٤١؛ النويري:

المصدر السابق، ج ٢٧، ص ١٧٢؛ أبو المحاسن: المصدر السابق، ج ٦، ص ٨٩ - ٩٠.

وصول عماد الدين مودود، قام علم الدين سليمان بن جندر بأداء اليمين، ولما وصل عز الدين مسعود إلى حلب هرب منها علم الدين سليمان إلى صلاح الدين في مصر، لأنه كان بينهما صداقة قديمة^(١).

ومن هذا يظهر أن «علم الدين سليمان بن جندر» كان مواليا لعماد الدين بن مودود أمير سنجار، وحاول أن يساعده في ولاية حلب، وهذا يوضح أنه كان لا يعمل من أجل حماية حلب، بل كانت تحركه أطماعه الخاصة، وعلى ضوء هذه الأطماع فنحن لا نستبعد أن يكون لرأي ابن أبي طي أساسا من الصحة.

ومن الأحداث التي دونها ابن أبي طي أيضا في عام ٥٧٧ هـ / ٨١ - ١١٨٢ م كان إنجاب السلطان صلاح الدين لولدين، وهى من الأخبار الخاصة بحياة صلاح الدين والتي كان يحرص ابن أبي طي أن يضمها لكتابه عن سيرته فقال: «وفيها ولد للسلطان «الملك المعظم تورانشاه»، و الملك «المحسن أحمد» بينهما سبعة أيام؛ واتصل الفرح بها أربعة عشر يوما^(٢)»^(٣).

وشهدت أحداث عام ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م تطورا كبيرا في مجريات الأمور في حلب وبلاد الجزيرة، هذا بالإضافة إلى بعض الموضوعات الأخرى التي عرضها ابن أبي طي ضمن أحداث هذا العام.

تطور الأحوال في حلب بعد وفاة الملك الصالح إسماعيل:

ألت ولاية حلب إلى الملك «عز الدين مسعود» ملك الموصل وذلك حسب وصية ابن عمه الملك الصالح إسماعيل بذلك، فوصل إليها في شعبان عام ٥٧٧ هـ / ١١٨٢ م، وقام

(١) ابن العديم: المصدر السابق، ج ٣، ٤٥، ٤٧، ٥٠، ٨٤.

(٢) أورد ابن كثير نفس رواية ابن أبي طي. انظر: (البداية، ج ١٢، ص ٨٤٠).

(٣) أبو شامة: المصدر السابق، ج ٢، ق ١، ص ٨٤.

بإجراء بعض التغييرات في ولاية الأمور في حلب، ومن ذلك عهد إلى «مظفر لدين ابن زين الدين»^(١) بولاية مدينة حلب و الديوان وجعل إليه أيضا قيادة العساكر، ثم غادر حلب في شوال من نفس العام وتوجه إلى «الرقّة»^(٢).

وقد استغل «مظفر الدين ابن زين الدين» خلو البلد من واليها وحاول الاستيلاء على قلعة حلب. وعرض ابن أبي طي هذا التمرد، ووصلتنا رواية مختصرة له عن هذا الموضوع^(٣) فقال: «في أول السنة أراد مظفر الدين ابن زين الدين و كان إليه شحنة حلب، الاستيلاء على قلعة حلب بأن يهجمها فلم يتمكن، وظهر أمره»^(٤).

ثم ذكر ابن أبي طي بعد هذه الواقعة المقيضة التي تمت بين عز الدين مسعود و أخيه عماد الدين حول بلدتي حلب و سنجار، وقد اختلف معه ابن العديم في تحديد توقيت وقوعها، و ذكر أنها حدثت قبل تمرد مظفر الدين بن زين الدين^(٥).

قال ابن أبي طي: «وبعد هذه الواقعة اجتمع الأخوان عز الدين وعماد الدين على الرقة وتحالفا على بساط واحد، وسلم عماد الدين ما كان بيده من سنجار وغيره إلى عز الدين، وسلم عز الدين إليه حلب فسار إليها ودخلها»^(٦). وكان هذا الاتفاق قد تم بينهما بعد أن هدد عماد الدين أخاه بأن يسلم سنجار إلى السلطان صلاح الدين، فيشكل له تهديدا مباشرا في الموصل^(٧).

(١) هو مظفر الدين كوكبري بن زين الدين علي بن بكتكين والي حران. (ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٥٦).

(٢) ابن العديم: المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٦، ٤٨، ٥١-٥٢.

(٣) لمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع انظر (ابن العديم: المصدر السابق، ص ٥٢-٥٤).

(٤) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٩٥.

(٥) المصدر السابق، ج ٣، ص ٥٢.

(٦) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٩٥.

(٧) ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٥٤؛ ابن العديم: المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٧.

تطور الأحوال في بلاد الجزيرة:

كان السلطان صلاح الدين في مصر عندما بلغه خبر وفاة الملك الصالح إسماعيل، فقرر مغادرتها، حيث أصبحت الفرصة مواتية له لضم حلب إلى أملاك الدولة الأيوبية في بلاد الشام، فسار حتى أصبح بالقرب منها، ثم ما لبث أن تركها وذلك بعد أن استمع - كما قال العماد الأصفهاني - إلى نصيحة «مظفر الدين بن زين الدين» أمير حران، بضم بلاد الجزيرة أولاً ليتيسر له بعد ذلك أمر حلب^(١). وقد ذكر ذلك أيضاً ابن أبي طي واتفق في روايته مع العماد الأصفهاني، فقال: «فخرج مظفر الدين عنها (حلب) وصار إلى الفرات، فلما اتصل به قصد السلطان حلب سار إلى خدمته، واجتمع به على «جباب التركمان»، وأشار على السلطان بعبور الفرات والاستيلاء على بلاد الشرق وتأخير أمر حلب، ففعل، ورحل عن حلب بعد أن أقام عليها ستة أيام»^(٢).

ثم سار السلطان صلاح الدين نحو بلاد الجزيرة وتمكنت قواته من السيطرة على معظم البلاد بها^(٣). وقد وصلنا من كتابات ابن أبي طي عرضاً مختصراً لبعض البلاد التي ملكها صلاح الدين هناك، وأضاف في هذه الكتابات بعض المعلومات التي تتعلق بمحاولة استيلاء صلاح الدين على «تل خالد»، ثم سيطرته على «البيرة»، و«سروج»، فقال: «وأقام على «تل خالد» ثلاثة أيام، ثم رحل إلى البيرة، وفيها «شهاب الدين محمد بن الياس الأرثقي»، فنزل إليه و قبل الأرض بين يديه، وسأله الصعود إلى قلعة البيرة فأجابته، وقدم له مفاتيح القلعة فردها إليه ووعدته باستخلاص ما كان «صاحب ماردين»^(٤) رده عليه.

(١) المصدر السابق، ص ١٨٥-١٨٦، ٢٠١. وانظر أيضاً: ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص

١٥٦؛ ابن العديم: المصدر السابق، ج ٥٦؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢، ص ١١٠، ١١٦.

(٢) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٩٥.

(٣) لمزيد من التفاصيل انظر: (العماد الأصفهاني: سنا البرق، ٢٠٢-٢٠٣؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٩

ص ١٥٤، ١٥٦، ١٥٧).

(٤) هو قطب الدين ايلغازي بن البي بن تمر تاش بن ايلغازي بن أرثقي. (ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص

١٥٤).

ورحل السلطان إلى سروج، فنزل إليه صاحبها «ابن مالك» مستأمناً فأعادته إلى بلده، وراسل صاحب ماردين في رد ما كان تغلب عليه من أعمال البيرة ففعل. ثم أخذ الرها ثم الرقة؛ ثم سلم الرها إلى «ابن زين الدين» والرقة إلى «صاحب الرها»^(١) لأنه سأل أن يكون في خدمة السلطان»^(٢).

وقد استنفذت توسعات السلطان صلاح الدين في بلاد الجزيرة الكثير من الأموال، ولهذا راسل نوابه في دمشق و مصر لإرسال المال إليه، وقد أمدنا ابن أبي طي بأجزاء من نصوص رسائل صلاح الدين إلى ابن أخيه «عز الدين فرخشاه» في دمشق وإلى أخيه «الملك العادل» في مصر.

قال ابن أبي طي: «ومن كتاب فاضلي عن السلطان إلى «عز الدين فرخشاه» يعلمه بالحال وفي آخره «ولتعجل بحمل ما هناك من الأموال، فكلما فتحت البلاد أبوابها قد فتحت المطامع أفواها، واستوعبت الخزائن إخراجاً وإنفاقاً، واستنفذت الخواصل إعطاء وإطلاقاً؛ وقدما على بحر لا يسده إلا بحر، وعلى أيد إن كان بها الغنى ففي أنفسها الفقر».

ثم قال: «ومن كتاب آخر إلى «العادل»: «يعلم مقدار الحاجة إلى الإنفاق وكثرة الخرج الذي اشترك فيه أهل الأفاق وأنه متى نصبت المواد وقفت الأمور التي قد شارفت نهاياتها وتفرقت الجموع التي تناذرت الأعداء نكايتها، ومادون تملك البلاد إلا الوصول إليها، و النزول عليها»^(٣).

ومن الأحداث التي تناولها ابن أبي طي في عام ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م كانت:

(١) هو الأمير فخر الدين مسعود بن الزعفراني. (العماد الأصفهاني: سنا البرق، ص ٢٠٢).

(٢) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٩٥-٩٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ٩٦.

وفاة عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب:

كانت وفاته في جمادى الأولى من السنة^(١)، وأورد ابن أبي طي عنه ترجمة كبيرة، أوضح فيها أهم صفاته، وخاصة كرمه، كذلك ذكر بعض أبيات من الشعر التي قيلت في مدحه، كما عرض نماذج من شعر عز الدين فرخشاه.

قال ابن أبي طي عن كرمه: «كان فرخشاه من أكرم الناس يدا، و أظهرهم أخلاقا، و أسدهم رأيا، و أشجعهم قلبا. و مما يحكى من كرمه أنه دخل الحمام يوما فرأى رجلا قد قعد به الزمان، و كان يعرفه من أهل اليسار، و شاهد عليه ثيابا رثة يبين منها بعض جسده، فاستدعى بجميع ما يحتاج الرجل إلى لبسه، و أمر له بغلام، و بغلة مسرجة و بألف دينار، و قال لبعض غلمانه: اجعل هذا كله في موضع ثياب الرجل و خذ ثيابه، و اجعل هذا الغلام و البغلة له، ففعل. فلما تغسل الرجل و خرج رأى موضع ثيابه تلك الثياب، و سأل الحمامي عن ثيابه فقال: انبدلت بهذه الثياب، فتقدم إليه الغلام و أخبره بجميع ما صنعه «عز الدين»، و أخبره بأنه قد أجرى عليه معيشة عشرين دينارا في كل شهر، فلبس الثياب و خرج من الحمام وهو من أغنى الناس».

ثم قال ابن أبي طي: «وكان فرخشاه ممدحا، مدحه «ابن سعدان» بعدة قصائد من جملها التي يقول فيها:

ان نأبأ، واهتدواني ظفرا	تخذ السابري لبدأ، وعود الز
زاب عنه سجعاء، و نظما، و نثرا	أعجمى الأنساب قصرت الأع
و أعادت دُجى الحوادث فجدا	هزمت كُتبه الكنائب جُفلا
نف حلما و كالفرزدق شعرا	فهو كالمسازنى علما، و كالأح

ثم قال أيضا: «وكان فرخشاه مضافا إلى شجاعته، عالما متفتنا كثير الأدب مطبوع

(١) العباد الأصفهاني: المصدر السابق، ص ٢١٠.

النظم والنثر. فمن شعره قوله:

من هوى هذا الغلام	أنسا في أسر السقام
ه فزادى بسهام	رشا ترشق عينا
ه على حمر الأوام	كلما أرشفتني فسا
لج المصطفى في المدام ^(١)	ذقت منه الشهد في الث

وفي عام ٥٧٩ هـ / ٨٣ - ١١٨٤ م أوشكت جهود السلطان صلاح الدين الرامية إلى تحقيق جبهة إسلامية موحدة تحت راية الدولة الأيوبية على الانتهاء. حيث واصل في هذا العام بسط سيطرته على بلاد الجزيرة، فملك مدينة آمد، كذلك خضعت لسلطته مدينة حلب و حصن حارم. وقد آمدنا ابن أبي طي بكثير من تفاصيل هذه الفتوحات، خاصة أحداث ملكه حلب، والإجراءات الإدارية التي أقرها فيها.

سيطرة صلاح الدين على آمد:

توجهت قوات السلطان صلاح الدين لحصار مدينة «آمد»^(٢) في منتصف شهر ذي الحجة عام ٥٧٨ هـ / ١١٨٣ م، واستمر حصاره قائما لها حتى بداية عام ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م. ومع بداية هذا العام بدأت الكتابات التي وجدناها لابن أبي طي عن أحداث هذا الحصار، ثم واصل بعد ذلك إيضاح باقي الأحداث التي انتهت بتسلم صلاح الدين المدينة وقد لاحظنا اتفاق ابن أبي طي في سرده لمعظم هذه الأحداث مع كتابات العماد

(١) أورد ابن كثير ملخصا للقصة التي رواها ابن أبي طي عن كرم فرخشا، وذكر أيضا أبيات الشعر التي كتبها ابن أبي طي من شعر فرخشا. انظر: (البداية، ج ١٢، ص ٨٤٢).

(٢) أبو شامة: المصدر السابق، ج ٢، ق ١، ص ١٠٧-١٠٨.

(٣) آمد: أعظم مدن ديار بكر وأجلها قدرا وأشهرها، تقع ضمن بلاد جزيرة أقور، الواقعة بين نهري دجلة والفرات. (ياقوت: معجم البلدان، ج ١، ص ٥٦، ج ٢، ص ١٣٤).

الأصفهاني^(١)، ولم تخل مع ذلك كتابات ابن أبي طي من بعض الإضافات، وسنشير إليها في حينها.

قال ابن أبي طي عن أحداث الحصار: «(دخلت سنة تسع و سبعين و خمسمائة) والسلطان مُنازل لآمد واشتد قتال العامة بها، فأمر السلطان بكتب رقاع فيها إِبْرَاق وإزعاد، ووَعْد وإيعاد، وإن داموا على القتال لنستأصلن شأفتهم وإن اعتزلوا وسلّموا البلد لنُحسننَّ إليهم، ولنضعن ما عليهم من الكُلف و الضرائب، وأمر أن تُعلّق تلك الرقاع على السهام وترمى إلى آمد فرمى من ذلك شيء كثير، فكفوا عن القتال وأشاروا علي «ابن نَيْسان»^(٢)، بطلب الأمان فأومن على أن يخرج بجميع أمواله دون الذخائر والسلاح وأمهل ثلاثة أيام»^(٣).

وفي خلال هذه الأيام الثلاثة نقل «ابن نيسان» ما استطاع من مقتنياته في آمد، وعاونته في ذلك السلطان صلاح الدين. وقد أوضح ابن أبي طي تفاصيل ذلك قائلا: «فلما عوّل على نقل أمواله قعد به أصحابه، فأرسل إلى السلطان فأنفذ إليه غلما و دواب، وضربت له خيمة بظاهر آمد، و جعل ينقل ما يقدر على نقله من المال والقماش وآلات الذهب و الفضة، مدة ثلاثة أيام، بعالم عظيم كانوا يزيدون على ثلثمائة إنسان، ولم ينقل عُشر ما كان له، وسُرِق من أمواله أكثر مما حصل له لأنه ما أخرج أحد شيئا إلا وأخذ نصفه أو أكثر. وكان ابن نيسان قد حصل في آمد أشياء كثيرة لا يمكن و صفها من الأسلحة، والأموال و الغلال و الكتب. ولما انقضى الأجل أخذ ما حصل، وسار قاصدا بلاد الروم»^(٤).

- (١) المصدر السابق، ص ٢٦٨-٢٢١. وانظر أيضا: ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٦١.
 (٢) هو بهاء الدين مسعود بن أبي علي بن نيسان: كان له الحكم الفعلي في مدينة آمد، كما كان لوالده من قبله، ولم يكن لواليتها «محمود بن إيلكدي» معهم أمر ولا نهي. (ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٦١؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ١٣٤).
 (٣) أبو شامة: المصدر السابق، ج ٢، ق ١، ص ١٢٥.
 (٤) أبو شامة: المصدر السابق، ج ٢، ق ١، ص ١٢٥ (طبعة دار الكتب).

و تسلم بعد ذلك السلطان صلاح الدين مدينة آمد، ووصف ابن أبي طي ما وجد بها من ذخائر، واتفق في وصفه لكثير من هذه الذخائر مع «العماد الأصفهاني»^(١)؛ كما أنفرد ابن أبي طي بيا ذكره عن آلات الحصار ومنها نصول الشباب، وأيضا ما أورده عن خزانة الكتب، فقال: «وتسلم السلطان مدينة آمد بأموالها و ذخائرها، و {نصب}»^(٢) أعلامه على {سورها}»^(٣)، وذلك في «رابع عشر المحرم»^(٤)، ووجد فيها من الغلال والسلاح، وآلات الحصار من المجانيق، واللعب و {العَرَادَات}»^(٥) أشياء كثيرة لا يمكن أن يوجد في بلد مثلها ووجد فيها برج من أبراجها فيه «مائة ألف شمعة»^(٦)، وبرج مملوء بنُصُول النَّشَاب، وأشياء كثيرة يطول شرحها. وكان فيها خزانة كتب كان فيها ألف ألف وأربعون ألف كتاب، فوهب السلطان الكتب للقاضي الفاضل فانتخب منها حمل سبعين «حجاجة»^(٧). ويقال إن «ابن قرا أرسلان»^(٨) باع من ذخائر آمد و خزائنها مما لا حاجة له به مدة سبع سنين حتى امتلأت الأرض من ذخائرها»^(٩)»^(١٠).

(١) المصدر السابق، ص ٢٢٠-٢٢١.

(٢) في طبعة: «دار الجليل». «نصبت». (أبو شامة: الروضتين، ج ٢، ص ٣٩).

(٣) في طبعة: «دار الجليل». «أسوارها». (المصدر نفسه والصفحة).

(٤) اختلف هنا ابن الأثير مع ابن أبي طي، وذكر أن السلطان صلاح الدين تسلم آمد في العشر الأول من المحرم، و نعتقد أن رأي ابن الأثير هو الأصح، حيث أوضح ابن أبي طي بعد ذلك أن صلاح الدين اتجه إلى مدينة تل خالد وتسلمها بعد ملكه آمد، وحدد تاريخ ملكه تل خالد أيضا في يوم الرابع عشر من المحرم. (ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٦١؛ أبو شامة: الروضتين، ج ٢، ق ١، ص ١٣٥) طبعة دار الكتب).

(٥) في طبعة: «دار الجليل». «الزوائد» (أبو شامة: الروضتين، ج ٢، ص ٣٩).

(٦) في رواية العماد الأصفهاني: «ثمانين ألف شمعة». (سنا البرق، ص ٢٢٠).

(٧) في رواية «ابن كثير»: «حمارة». (البداية، ج ١٢، ص ٨٤٣).

(٨) هو نور الدين محمد بن قرا أرسلان أمير حصن كيفا. (ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٦١).

(٩) أورد ابن كثير نفس رواية ابن أبي طي عن خزائن السلاح والشمع والكتب. انظر: (البداية، ج ١٢، ص ٨٤٣).

(١٠) أبو شامة: المصدر السابق، ج ٢، ق ١، ص ١٢٥-١٢٦.

ثم وهب السلطان صلاح الدين مدينة آمد وذخائرها للأمير نور الدين محمد بن قرا أرسلان أمير حصن كيفا، وقد ذكر العماد الأصفهاني تفاصيل ذلك^(١)، واتفق معه ابن أبي طي في مجمل روايته، فقال: «وكان السلطان لما تسلم آمد وهبها لنور الدين محمد بن قرا أرسلان بها فيها، وكتب له بها وبأعمالها توقيعاً ووقف له بها به، وقيل للسلطان أنك وعدته بآمد وما وعدته بها فيها من الأموال والذخائر، وفيها من الذخائر «ما يساوي ثلاثة آلاف ألف دينار»^(٢)، فقال: لا أضنُّ عليه بها فيها من الأموال فإنه قد صار من اتباعنا وأصحابنا»^(٣).

ثم اختتم ابن أبي طي روايته عن ملك السلطان صلاح الدين آمد بذكر أبيات من الشعر التي مدج فيها بعض الشعراء الحلبيين هذا الانتصار الجديد. فقال: «وفي فتح آمد يقول «سعيد الحلبي» من قصيدة في السلطان:

رمى آمدًا بالصفافات، فأذعنت	له طاعة أكامئها ووُغورُها
فما عزَّ ناديا، ولا اعتاص ثغرها	ولا جاش طاميهها ولا رد سورُها
وأنزلت بالكرة ابن نيسان مُحرجا	كما أنزل الزَّيَّاء كزها قصيرُها
نهضت لها حتى إذا انقباد صعبيها	وقرَّ على طول الشماس نفورُها
سمحت بها جوداً كمن ظل برهة	بغارها طوراً، وطوراً بغيرها
وملكت ما ملكت منها تحولاً	وكان قليلاً في نَدَاك كثيرها

(١) المصدر السابق، ص ٢٢٠.

(٢) أورد ابن كثير نفس تقدير ابن أبي طي لقيمة ذخائر آمد. وكان العماد الأصفهاني قد ذكر رقماً تقريباً لتقدير قيمة هذه الذخائر فقال: «فيها ذخائر تربي علي ألف ألف دينار». وأكد رأي العماد ابن الأثير وبعض المؤرخين. (العماد: سنا البرق، ص ٢٢٠؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٦٦. وانظر أيضاً: ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ١٣٦؛ النويري: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٣٨٣؛ ابن كثير: البداية، ج ١، ص ٨٤٣).

(٣) أبو شامة: المصدر السابق، ج ٢، ق ١، ص ١٢٦.

وإن بلاداً أنجسدتك ملوكها لأجد رَأْن يرجو نَدَاك فقيرها

وقال أيضا ابن أبي طي: «قال ابن سعدان الحلبي» يذكر فتح آمد:
 فيما كنى الرّعناء من سفح آمد أرى عارضاً ينهل بالموت هاطله
 لعن غضبت يوماً عليكم عروشها فهذا ابنُ أيوب، وهذي معاقله
 و{لوراقها} ^(١) يوماً سواهُ لقطعت أباهره من دونها، رأباجله ^(٢).

سيطرة صلاح الدين على تل خالد:

انتقلت قوات السلطان صلاح الدين بعد ملكه آمد نحو حلب، وقامت بحصار البلاد القريبة منها، فحاصرت مدينة «تل خالد» في المحرم من عام ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م ^(٣) وأوضح العماد الأصفهاني أن فرقة من قوات السلطان صلاح الدين بقيادة «تاج الملوك بوري» ^(٤) كانت قد سبقته إلى تل خالد، وقاموا بحصارها حصاراً شديداً، وبعد وصول السلطان صلاح الدين إلى تل خالد في الثاني عشر من المحرم فتحت المدينة أبوابها له ^(٥).

أما بالنسبة لما ذكره ابن أبي طي عن هذا الموضوع، فقد لاحظنا اتفاق روايته مع العماد الأصفهاني اتفاقاً كبيراً، كذلك كتب ابن أبي طي أيضاً جزءاً من الكتاب الذي أورده العماد، وهو من إنشاء القاضي الفاضل ووصف فيه المعركة.

(١) في طبعة: «دار الجليل». «ولورامها» (أبو شامة: الروضتين، ج ٢، ص ٣٩).

(٢) المصدر نفسه، ج ٢، ق ١، ص ١٢٦ (طبعة دار الكتب).

(٣) ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٦٦؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٣٩؛ النويري: المصدر السابق، ج ٢٨، ص ٣٨٤.

(٤) هو تاج الملوك بوري بن أيوب: أصغر أخوة السلطان صلاح الدين، توفي في صفر عام ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م علي أثر جرح أصابه أثناء حصار صلاح الدين حلب. وسوف نذكر المزيد من التفاصيل عنه في الصفحات القادمة من خلال الترجمة التي أوردها ابن أبي طي عنه. (العماد لأصفهاني: سنا البرق، ص ٢٢٣؛ ابن كثير: البداية، ج ١٢، ص ٨٤٤).

(٥) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص ٢٢٣.

قال ابن أبي طي: «تسلم السلطان تل خالد في رابع عشر المحرم، وسلمها إلى «بدر الدين دلدرد»^(١). ثم قال: «ومن كتاب فاضلي» نزلنا تل خالد يوم الثلاثاء

ثاني عشر المحرم، وكان قد تقدمنا لأجل «تاج الملوك» إليها وأناخ عليها، وقابلها، وقاتلها، وعالجها ولو شاء لعاجلها ولما أطلت عليها رايأتنا ألقى من فيها بيده وأنجز النصر صادق مواعده^(٢)، وأرسلتها حلب مقدّمة لفتحها. وقد أنعم الله علينا بنعم لا نحصيها تعداداً، ولا نستقصيها اعتداداً، ولا نستوعبها ولو كان النهار طرساً والبحر مداداً. ورايتنا المنصورة قد صارت مغناطيس البلاد تجذبها بطبعها، وسيوفنا قد صارت مفاتيح الأمصار تفتحها بنصر الله لا يحدّها ولا يقطعها^(٣).

سيطرة السلطان صلاح الدين على حلب:

تميزت كتابات ابن أبي طي عن الأحداث التي أعقبت سيطرة السلطان صلاح الدين على حلب، حيث أورد عنه أبو شامة أحداثاً مهمة انفرد بذكر الكثير منها، واكتفى أبو شامة بهذه الأحداث من رواية ابن أبي طي، واختصر من كتاباته مقدمة الأحداث التي توضح حصار صلاح الدين حلب.

وكان السلطان صلاح الدين قد وصلت قواته إلى حلب في السادس والعشرين من المحرم عام ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م، وأقام حولها حصاراً شديداً، وقاتله واليها «عماد الدين زنكي» لفترة، ثم راسله واتفق معه على تسليمه حلب في مقابل تعويضه عنها بعدة مدن في بلاد الجزيرة، وهي: سنجار و الخابور و سروج و نصيين و الرقة، ووقع الاتفاق بينهم في

(١) هو بدر الدين دلدرد بن بهاء الدولة بن ياروق : كان والياً أيضاً علي تل باشر . (العماد الأصفهاني :

سنا البرق ، ص ٢٢٧ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٧١) .

(٢) أورد العماد هذا الجزء بأسلوبه ، ولم يذكره ضمن كتاب القاضي الفاضل . (المصدر السابق ، ص ٢٢٣) .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ١٣٥ .

السابع عشر من صفر من نفس العام^(١).

وقد بدأت كتابات ابن أبي طي بذكر أبيات من الشعر لبعض الشعراء الحلبيين الذين كانوا يحرّضون صلاح الدين على ملك حلب. ولعل ابن أبي طي اهتم بذكر هذه الأبيات ضمن كتابه عن سيرة السلطان صلاح الدين، ليدلل بها على تمتع السلطان صلاح الدين بحب كثير من الناس له حتى في البلاد الخارجة عن نطاق حكمه.

قال ابن أبي طي: «وكان كثير من الشعراء يحرّضون السلطان على فتح حلب، منهم: أبو الفضل بن حميد الحلبي» له من قصيدة قال:

يا ابن أيوب: لا برحت مدى الده
ر رفيع المكان والسُّلطان
حلب الشام نحو مراكٍ ونهى
وَأَلَّة الصُّبِّ رِيحَ بِالْهَجْرَانِ

ثم قال: «وقال ابن سعدان الحلبي» من قصيدة:

دونك والحسنة أم القرى
واركب إلى العلياء كل صعبة
وازم فكلّ الصّيد في جوف الفرا
مُدَّ إلى أخت السهاء زورة
فيا لها شماء مسمخرة
إيه صلاح الدين، شدّ أزرها
ونارها الأشهب والظود الأشم
أبيت لعناً، وخلاك كل ذم
لا {صادد} ^(٢) السهم، ولا نأبي الحكم
لا فرق يعقبها — ولا ندم
تُطارح البرق وساحات الديم
واعزم عليها، الزّمن قد عزم

(١) للمزيد من التفاصيل حول حصار صلاح الدين حلب انظر . (العماد الأصفهاني : سنا البرق، ص ٢٢٤-٢٢٦؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٦٢؛ ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٥٩؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج ٣، ص ٦٣-٦٧؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ١٤١-١٤٢؛ النويري: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٣٨٤-٣٨٥).

(٢) في طبعة: «دار الجليل». «صارم». (أبو شامة: الروضتين، ج ٢، ص ٤٤).

ودونك المنعة من قباها وبها المعلق في وجه الأمم»^(١)

ثم عرض ابن أبي طي أهم الأحداث التي تلت ملك السلطان صلاح الدين حلب وبدأها بتحديد تاريخ اليوم الذي تسلم فيه حلب، وكان تحديده أكثر دقة عن غيره من المؤرخين^(٢)، فقال: «وفي آخر يوم السبت، ثامن عشر صفر، نشر سنجق السلطان الأصفر على سور قلعة حلب وضربت له البشائر»^(٣).

وتناولت كتابات ابن أبي طي بعد ذلك أحوال الأمير عماد الدين زنكي، وإلى حلب الأسبق، فأوضح قيامه بنقل جميع أمواله وذخائره من قلعة حلب. وقد اتفق ابن العديم مع ابن أبي طي في جانب كبير من روايته^(٤)، وانفرد ابن أبي طي بذكر التسهيلات التي قدمها السلطان صلاح الدين لعماد الدين، فذكر تنازله لعماد الدين عن ما في قلعة حلب من ذخائر، وإمداده بالدواب لنقل هذه الذخائر.

قال ابن أبي طي: «وفي ذلك الوقت تخفى عماد الدين» وخرج من القلعة ليلاً إلى المخيم، وأخذ في إخراج ما كان له بالقلعة من مال وسلاح وأثاث. وكان استناب

الأمير «حسام الدين طمان» في القلعة حتى توافى رسله بتسليم سنجار ونصيبين والخابور إلى نوابه، وأعطى السلطان طمان الرقة {لوساطة}^(٥) في أمر عماد الدين. وكان السلطان شرط أنه ما يريد من حلب إلا الحجر فقط وأذن لعماد الدين في أخذ جميع ما في القلعة وما يمكنه حمله؛ فلم يترك عماد الدين فيها شيئاً، وباع في السوق كل ما لم يتمكن من

(١) المصدر نفسه، ج ٢، ق ١، ص ١٤٢ (طبعة دار الكتب).

(٢) كان ابن الأثير قد ذكر أن صلاح الدين تسلم حلب في الثامن عشر من صفر، وأضاف المقرئزي أن ذلك كان يوم السبت. (ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٦٢؛ النويري: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص

٣٨٥؛ المقرئزي: السلوك، ج ١، ق ١، ص ٨١).

(٣) أبو شامة: المصدر السابق، ج ٢، ق ١، ص ١٤٢.

(٤) المصدر السابق، ج ٣، ص ٦٦، ٦٩.

(٥) في طبعة: «دار الجليل». «لوساطته». (أبو شامة: الروضتين، ج ٢، ص ٤٤).

حملة، وأطلق له السلطان بغالا وجمالا وخيلا برسم حمل ما يحتاج إلى حملة»^(١)

كما دعا السلطان صلاح الدين عماد الدين زنكى إلى وليمة أقامها له بمخيمه بالميدان الأخضر بحلب. وأمدنا العماد الأصفهاني بمجمل أحداث هذه الدعوة^(٢)، واتفق ابن أبي طي معه في عرض هذه الأحداث، وأضاف عليها بعض الجمل الأدبية التي تشابه مع أسلوب العماد الذى يغلب عليه السجع في معظم كلماته. قال ابن أبي طي: «وعمل له يوم الأحد «تاسع عشر صفر»^(٣) دعوة عظيمة في الميدان الأخضر، وأحضرها جميع الأمراء ومقدمى حلب. وبينما السلطان على لُدَّته بالدعوة والأخذ والإعطاء، والإنعام والحياء، إذ حضر إليه من عرفه وفاة أخيه «تاج الملوك» بسبب الضربة التي أصابته على حلب، فلم يتغير لذلك ولا اضطرب، ولا انقطع عما كان عليه من البشاشة والفرح وبئلى الإحسان؛ وأمر بستر ذلك، وتوعد عليه إن ظهر وكظم حزنه، وأخفى رزئته، وصبر على مصيبتها، ولم يزل على طلاقة وبشاشته إلى وقت العصر، وفي ذلك الوقت انقضت الدعوة وتفرق الناس، فحينئذ قام رحمه الله واسترجع وبكى على أخيه؛ ثم أمر به فُعَسِّلَ وكُفِّنَ و صُلِّيَ عليه، وأمر به فدفن بمقام إبراهيم صلى الله عليه وسلم، بظاهر حلب، ثم حملة بعد ذلك إلى دمشق ودفنه بها»^(٤).

وأورد ابن أبي طي عقب ذكره خبر وفاة «تاج الملوك بوري»^(٥)، ترجمة عنه، شملت أهم ما كان يميزه من صفات، كما عرض فيها أيضا نماذج من شعره فقال:

(١) المصدر نفسه، ج ٢، ق ١، ص ١٤٢ - ١٤٣ (طبعة دار الكتب).

(٢) المصدر السابق، ص ٢٢٧.

(٣) ذكر ابن العديم أن دعوة السلطان صلاح الدين لعقاد الدين كانت في يوم الخميس الموافق الثالث والعشرون من صفر، كما أكد ابن شداد أن وفاة تاج الملوك كانت في ذلك اليوم. (ابن العديم: زبدة الحلب، ج ٣، ص ٦٩؛ ابن شداد: النوادر، ص ٥٩ - ٦٠).

(٤) أبو شامة: المصدر السابق، ج ٢، ق ١، ص ١٤٣.

(٥) ترجم له أيضا كثير من المؤرخين من بينهم: (ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ١٤٣ - ١٤٤؛ الحنبلي: شفاء القلوب، ص ٨٤ - ٨٨).

«وكان تاج الملوك شابا حسن الشباب، مليح الأعطاف، عذب العبارة، حلو الفكاهة. مليح الرمي بالقوس وألطن بالرمح، وكان شجاعا باملا مقداما على الأهوال. وكان قد جمع إلى ذلك الكرم والتفنن في الأدب، وله شعر حسن متوسط فمته:

يا هذه، وأمانى النفس قريكم يا ليتها بلغت منكم أمانيتها
إن كانت العين مذ فارقتكم نظرت إلى سواكم فخانتها أمانيتها

ثم قال: ولما انقضت تعزية السلطان بأخيه خلع على الناس في اليوم الرابع وفرق في وجوه الحلبيين الأموال^(١).

ثم وصل بعد ذلك في اليوم السادس والعشرين من صفر عام ٥٧٩هـ / ١١٨٣ م رسل الأمير عماد الدين زنكي، ليخبروه بتسلم نوابه البلاد التي عينها له السلطان صلاح الدين في بلاد الجزيرة عوضا له عن حلب، فخرج عماد الدين من قلعة حلب إلى هناك. وقد أهتم المؤرخ ابن أبي طي بتسجيل وقائع هذا اليوم، وأمدنا بوصف مهم للقاء الوداع بين السلطان صلاح الدين و الأمير عماد الدين زنكي والخلع التي قدمها له صلاح الدين، وانفرد بكتابة ذلك بين كثير من المؤرخين^(٢).

قال ابن أبي طي: «وفي سادس عشرى صفر ورد أصحاب عماد الدين وأحضروا إليه العلائم بتسليم «سنجار و نصيين والخابور». ففى ذلك اليوم تسلّم قلعة حلب وانزل منها الأمير «طمان» وأصحابه، ولما سلمها إلى نواب السلطان ركب عماد الدين فى وجوه أصحابه وأمرائه، وخرج إلى خدمة السلطان ظاهرا، وركب السلطان إلى لقائه، فاجتمعا عند «مشهد الدعاء»^(٣) الذى بظاهر حلب من جهة الشمال، فتسالما، ولم يترجّل أحدٌ منها

(١) أبو شامة: المصدر السابق، ج ٢، ق ١، ص ١٤٣.

(٢) كان كثير من المؤرخين قد أشاروا فقط إلى وصول رسل الأمير عماد الدين زنكي، وما قدمه له صلاح الدين من هدايا، ومنهم: (ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٦٠؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج ٢، ص ٦٩ - ٧٠؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ١٤٤).

(٣) مشهد الدعاء: يقع في شمال حلب خارج باب النصر، وهو مشهد قديم، وقد جُرب لإجابة الدعاء

لصاحبه. ثم جاء بعد عماد الدين ولده «قطب الدين» فترجل للسلطان وترجل السلطان له، واعتنقه، وعادا فركبا، وسار هو وأبوه في خدمة السلطان إلى نخيم بالميدان الأخضر، فأجلس السلطان عماد الدين معه على طرأخته، وقدم له تقدمه حسنه: عشرين بُقْجَة صُفْرًا، فيها مائة ثوب من العتابى والأطلس والمعتنق، و{المجرش} (١)، وغير ذلك؛ وعشرة جلود «قندس» (٢) وخمس خلع خاص يرسمه ورسم ولده، ومائة «قبا»، ومائة «كمة»، وحجرتين عربيتين بأداتهما، وبغلتين مسروجتين، وعشرة «أكاديش» (٣) وخمس «قطر» (٤) بغال وثلاث قطر جمال عربيات، وقطار «بُخت» (٥). ولما فرغ السلطان من عرض الهدية قدم الطعام؛ فلما أصاب منه عماد الدين نهض للركوب وخرج السلطان معه وركب لودأعه، وسار معه إلى قريب من «بابي» (٦)، وودَّعه وعاد، وسار عماد الدين إلى بلاده» (٧).

وفي اليوم التالى لخروج عماد الدين زكى من قلعة حلب صعد إليها السلطان صلاح الدين (٨)، وقرأ عدة آيات من القرآن الكريم، وأظهر سروره لملكه حلب وقد أمدنا ابن أبى طى بتفاصيل هذا الموضوع فقال: «وفي يوم الاثنين سابع عشرى صفر ركب السلطان

(ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج ١، ق ١ (خاص بحلب)، ص ١٤٦).

(١) في طبعة: «دار الجليل». «الممرس». (أبو شامة: الروضتين، ج ٢، ص ٤٥).

(٢) القندس: القرص الأسود حيوان له فراء يؤخذ منه شريط في عرض نحو ثمن ذراع يدور ببجبة الرجل وأعلى عنقه. (أبو شامة: الروضتين، ج ٢، ق ١، ص ١٤٤ هامش ٣).

(٣) أكاديش: يطلق غالباً على الحصان غير الأصيل المستخدم في حمل الأثقال. (أبو شامة: الروضتين، ج ٢، ق ١، ص ١٤٤، هامش ٥).

(٤) قَطْر: أي تشد الإبل، أو غيرها على نسق، واحدا خلف واحد. (ابن منظور: لسان العرب، ج ١١، ص ٢١٦).

(٥) البُخت: الاسم أعجمي معرب، وهي جمال طوال الأعناق. (المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٢٨).

(٦) بابلاً: قرية كبيرة بظاهر حلب بينها نحو ميل (ياقوت: معجم البلدان، ج ١، ص ٣٠٩).

(٧) أبو شامة: المصدر السابق، ج ٢، ق ١، ص ١٤٤.

(٨) ابن العديم: المصدر السابق، ج ٣، ص ٧٠.

وصعد إلى قلعة حلب، وكان صعوده إليها من «باب الجليل»^(١) وسمع وهو صاعد إلى قلعة حلب يقرأ: «قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ»^(٢) الآية، وقال: والله ما سُرِزَتْ بفتح مدينة كَسْرُورِي بفتح هذه المدينة؛ والآن قد تَبَيَّنَتْ أنني أملك البلاد، وعلمت أن ملكي قد استقر وثبت، وقال: سعدت يوما مع نور الدين رحمه الله تعالى إلى هذه القلعة فسمعت يقرأ: «قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ» الآية. ثم قال: ولما بلغ السلطان إلى باب دار عماد الدين قرأ: «وَأَوْزَكْنَكُمْ أَرْضَهُمْ وَأَيَّارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ

وَأَرْضًا لَمْ تَطُؤُوهَا»^(٣)، ثم صار إلى المقام فصلّى ركعتين؛ ثم سجد فأطال السجود، ثم خرج ودار في جميع القلعة؛ ثم عاد إلى المخيم وأطلق المكوس والضرائب^(٤)، وسامح بأموال عظيمة، وجلس للمهناء بفتح حلب»^(٥).

ثم ذكر ابن أبي طي عدة أبيات من الشعر التي قيلت لتهمة السلطان صلاح الدين بملكه حلب، وذكر من بينها شعرا قاله والده في هذه المناسبة. فقال: «وأنشده جماعة من الشعراء منهم {يوسف {البراعي}}^(٦)، له من قصيدة:

شُرُفْتُ بِسَامِي مَجْدِكَ الشُّهْبَاءِ وَتَجَلَّلْتُهَا بِهَيْجَةِ وَضِيَاءِ
أَلْقَيْتُ إِلَيْكَ قِيَادَهَا، وَيَعَالِي كَلَّ الْمَلُوكُ تَرْفُوعُ وَإِسَاءِ

(١) باب الجليل: أنشأه الملك الظاهر بن السلطان صلاح الدين في سور قلعة حلب، ويقع شرقي باب القلعة، وانتهى من عمارته في عام ٦١١ هـ / ١٤ / ١٢١٥ م. وهذا الإيضاح يظهر عدم دقة ابن أبي طي في ذكره لدخول السلطان صلاح الدين من هذا الباب قبل بنائه بأكثر من ثلاثين عاما (ابن شداد: الأعلام الخطيرة، ج ١، (قسم حلب)، ص ٨٣).

(٢) سورة آل عمران آية ٢٦. (أبو شامة: الروضتين، ص ١٤٥، هامش ١).

(٣) سورة الأحزاب: آية ٢٧. (أبو شامة: الروضتين، ج ٢، ق ١، ص ١٤٥، هامش ٢).

(٤) أورد ابن كثير معظم ما أورده ابن أبي طي في هذا الجزء انظر: «البداية»، ج ١٢، ص ٨٤٤.

(٥) أبو شامة: المصدر السابق، ج ٢، ق ١، ص ١٤٥ (طبعة دار الكتب).

(٦) في طبعة: «دار الجليل». «البراعي». (المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٥).

قال: ومنهم: «سعيد بن محمد الحريري» من قصيدة، وتقدم بعضها:

وصبحت شهباء العواصم مصلتا	قواضب عزم لا يفلى شهرها
فأمطتلك منها غارياً فيك راغباً	وعاد يسيراً في يديك عسيرها
وأوطأت منها إخصيك تنوفاً	يعزّ على الشعري العبور عبورها
وردد إليهاروخ عدلك روحها	وكانت رمياً لا يرجى نشورها

ثم قال: وقال والدى أبو طي النجار من قصيدة:

حلب شامة الشام، وقد زيد	ت جلالاً بيوسف وجمالاً
هي أس الفخار، من نال أعلا	ها تعالي فخامة وتغالي
ومحل العلاء، من حل فيها	تساه كبراً وعزّة وجمالاً
من حوّاها ملكاً الأز	صن اقتساراً، سهولة وجمالاً
فافتقر عنها مهناً بمحل	صمك الأنجم الوضاء، وطالاً ^(١)

كما هنا أيضاً القاضي «محمي الدين بن زكي الدين»^(٢) السلطان صلاح الدين بقصيدة بائية، وشره في أحد أبياتها بفتح القدس، فقال:

(١) المصدر نفسه، ج ٢، ق ١، ص ١٤٥-١٤٦ (طبعة دار الكتب).

(٢) هو أبو المعالي محمد بن أبي الحسن الملقب محمي الدين المعروف بابن زكي الدين: ولد بدمشق في عام ٥٥٠ هـ / ١١٦٠ م، وكانت له لدى السلطان صلاح الدين منزلة عالية، ولهذا لما ملك حلب في عام ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م عهد إليه بولاية القضاء فيها، فأقام في القضاء بها لمدة ثم ستناب القاضي زين الدين أبا البيان بن البانياسي، وعاد إلي دمشق وتولى القضاء بدمشق في ربيع الأول عام ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م، وتوفي بدمشق في شعبان ٥٩٨ هـ / ١٢٠٢ م. (ابن العديم: زبدة الحلب، ج ٣، ص ٧١-٧٢؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٢٢٩-٢٣٠، ٢٣٦؛ المقرئ: المقفى، ج ٦، ص ٣٤٢-٣٤٣).

و«فتحكم حلبا بالسيف»^(١) في صفر مبشر بفتح القدس في رجب

وتحققت بالفعل هذه البشري بعد سنوات قلائل، حيث فتح السلطان صلاح الدين القدس في رجب عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م، وقد علق كثير من المؤرخين على تحقق هذه البشارة، فاعتبرها العماد الأصفهاني «نكته»، وذكرها البعض الآخر على سبيل الاتفاقات الحسنة والعجيبة^(٢).

وقد بحث ابن أبي طي في أصل هذا الموضوع^(٣)، وتحدث في ذلك مع جماعة من أهل حلب، ومن بينهم «الركن بن جهيل العدل»، الذي أخبره بمعلومات مهمة انفرد بها فقال: «وحدثني جماعة (من الحلبيين)^(٤) منهم: «الركن بن جهيل {العمل}»^(٥)، (قال)^(٦): (كان)^(٧) الفقيه «مجد الدين (طاهر بن نصر الله)^(٨) ابن جهيل الشافعي الحلبي»^(٩)،

(١) وفي رواية أخرى: «فتحك القلعة الشهاب». (ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٢٢٩؛ المقرئ: المقفي، ج ٦، ص ٣٤٣).

(٢) المصدر السابق، ص ٢٢٦. وانظر أيضا: ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٦١؛ ابن العديم: المصدر السابق، ج ٣، ص ٧١-٧٢؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٤٥؛ ابن أبيك الدواداري: كتر الدرر، ج ٧، ص ٧٥؛ الحنبلي: المصدر السابق، ص ١٢٥-١٢٦.

(٣) وردت رواية ابن أبي طي في كتاب الروضتين لأبي شامة، والمقفي للمقرئ، وسوف نعرض نص روايته كما أوردها كل منهم، مع الإشارة إلى الاختلافات بينهما.

(٤) إضافة في رواية أبو شامة (الروضتين، ج ٢، ق ١، ص ١٤٦).

(٥) في طبعة: «دار الجليل». «العدل». (أبو شامة: الروضتين، ج ٢، ص ٤٥)، وكذلك في الرواية التي أوردها المقرئ عن ابن أبي طي. (المقفي، ج ٦، ص ٣٤٣).

(٦) إضافة في رواية أبو شامة (الروضتين، ج ٢، ص ١٤٦ (طبعة دار الكتب)).

(٧) في رواية المقرئ «إن» (المقفي، ج ٦، ص ٣٤٣).

(٨) إضافة في رواية المقرئ (المصدر نفسه والصفحة).

(٩) هو طاهر بن نصر الله بن جهيل، مجد الدين الحلبي: كان إماما فاضلا في الفقه والحساب و الفرائض، سمع الحديث وحدث، و صنف للملك العادل نور الدين محمود كتابا في فضل الجهاد، درس بحلب بالمدرسة النورية، وهو أول من درس بالمدرسة الصلاحية بالقدس، وهو والد بني

(قد)^(١) وقع إليه تفسير القرآن «لأبي الحكم المغربي»^(٢)، فوجد فيه عند قوله تعالى «آلم، غُلِبَتِ الرُّومُ»^(٣) الآية، (أن أبا الحكم قال)^(٤): إن الروم يُغلبون في رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، ويُفتح البيت المقدس ويصير داراً للإسلام إلى آخر الأبد، واستدل على ذلك بأشياء ذكرها في كتابه، فلما فتح السلطان حلب كتب إليه المجد بن جهيل ورقة يبشره بفتح البيت المقدس على يديه، و (يعين فيه)^(٥) الزمان الذي يفتحه فيه، وأعطى الورقة للفقير «عيسى الهكاري» فلماً وقف الفقيه عيسى عليها لم يتجاسر على عرضها على السلطان (وحدث)^(٦) بما في الورقة (لمحي الدين بن زكي)^(٧) الدّين (القاضي)^(٨) الدمشقي، وكان (ابن زكي)^(٩) الدّين واثقاً بعقل ابن جهيل وأنه لا يُقدم على هذا القول حتى يحققه ويثق به، فعمل قصيدة مدح السلطان بها حين فتح حلب في صفر وقال فيها:

وفتحكم حلباً بالسيف في صفر قضي لكم بافتاح القدس في رجب

جهيل الفقهاء الدمشقيين، مات بالقدس عام ٥٩٦ هـ / ٩٩ - ١٢٠٠ م عن أربع وستين عام .
(الذهبي : العبر ، ج ٣ ، ص ١١٥ ؛ ابن قاضي شعبة : طبقات الشافعية ، ج ٢ ، ص ٢٦ ؛ العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ٣٢٤) .

(١) إضافة في رواية أبو شامة . (الروضتين ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ١٤٦) .

(٢) هو عبد السلام بن عبد الرحمن أبو الحكم اللخمي الإفريقي الصوفي المعروف بابن البرّجان : كان عارفاً بالقراءات والحديث ، والتحقيق بعلم الكلام ، والتصوف ، من مؤلفاته : « تفسير القرآن » ولم يكمل ، و « شرح الأسماء الحسنی » ، وقد أخذ عليه الإمعان في علم الحرف الذي استعمله في تفسير القرآن ، توفي في « مراكش » عام ٥٣٦ هـ / ٤١ - ١١٤٢ م . (ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ٢٣٦ - ٢٣٧ ؛ ابن حجر العسقلاني : لسان الميزان ، ج ٤ ، ١٣ - ١٤) .

(٣) سورة الروم ، آية ١ ، ٢ . (المقريزي : المقفي ، ج ٦ ، ص ٣٤٣) .

(٤) إضافة في رواية أبو شامة . (الروضتين ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ١٤٦) .

(٥) في رواية المقريزي « عين فيها » . (المقفي ، ج ٦ ، ص ٣٤٤) .

(٦) في رواية المقريزي « أعلم » . (المصدر نفسه والصفحة) .

(٧) في رواية المقريزي « محيى الدين محمد بن زكي » . (المصدر نفسه والصفحة) .

(٨) إضافة في رواية أبو شامة . (الروضتين ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ١٤٦) .

(٩) (١٠) في رواية المقريزي « ابن زكي » . (المقفي ، ج ٦ ، ص ٣٤٤) .

و لما سمع السلطان ذلك تعجب من مقالته، ثم حين فتح البيت المقدس خرج (إليه)^(١) المجد بن جهيل (إلى خدمته)^(٢) مهتئاً له بفتحه، وحدثه حديث الورقة، فتعجب السلطان من قوله، وقال: قد سبق إلى ذلك محمى الدين بن زكى الدين، غير أنى أجعل لك حظاً لا يزاحمك فيه أحد، ثم جمع له من (هناك)^(٣) (في المعسكر)^(٤) من الفقهاء وأهل الدين ثم أدخله إلى القدس^(٥)، و الفرنج بعد ما خرجوا منه، وأمره أن يذكر درساً من الفقه على الصخرة فدخل وذكر درساً هناك وحظى بها لم يحظ به غيره^(٦)^(٧).

واهتم بهذا الموضوع بعد ابن أبي طي بعض المؤرخين، ومنهم «أبو شامة» و «ابن خلكان»، وقد حرصا على قراءة تفسير «أبو الحكم ابن برجان»، وأوضح أبو شامة أنه وضع هذا التفسير في عام ٥٢٢ هـ / ١١٢٨ م^(٨)، وذلك بعد أن قام بعمل حساب طويل حتى خرج بهذا التفسير من آية «بضع سنين»^(٩).

سيطرة صلاح الدين على حارم:

حرص السلطان صلاح الدين بعد ملكه فحلب على ضم حصن حارم لأملاك الدولة الأيوبية في الشام، ولهذا راسل الوالى به وطلب منه التنازل عنه في مقابل تعويضه عنه

(١) إضافة في رواية أبو شامة. (الروضتين، ج ٢، ق ١، ص ١٤٧).

(٢) إضافة في رواية المقرئ (المقفي، ج ٦، ص ٣٤٤).

(٣) إضافة في رواية المقرئ (المصدر نفسه والصفحة).

(٤) إضافة في رواية أبو شامة. (المصدر السابق، ج ٢، ق ١، ص ١٤٧).

(٥) انتهى هنا نص ابن أبي طي الذي أورده المقرئ (المقفي، ج ٦، ص ٣٤٤-٣٤٣).

(٦) أورده ابن كثير ملخصاً لكتابات ابن أبي طي عن هذا الموضوع. انظر: (البداية، ج ١٢، ص ٨٤٤ - ٨٤٥).

(٧) أبو شامة: المصدر السابق، ج ٢، ق ١، ص ١٤٦-١٤٧.

(٨) أبو شامة: المصدر السابق، ج ٢، ق ١، ص ٣٥٧-٣٥٨؛ ابن خلكان: المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٢٩-٢٣٠.

(٩) سورة الروم، آية ٣. (ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٢٣٠).

بمناطق أخرى، فرفض الوالى عرضه، ولكن لم يوافق في ذلك كبار الأجناد في حارم، فقاموا بالقبض على الوالى، وأعلنوا طاعتهم للسلطان صلاح الدين. وقد عرض العماد الأصفهاني وابن الأثير وغيرهم من المؤرخين هذا الموضوع بتلخيص شديد لا يتجاوز بضعة أسطر^(١)، بينما أمدنا ابن أبي طي بتفاصيل كثيرة له تناول فيها معظم الآراء التي قيلت حرله.

قال ابن أبي طي: «كاتب الوالى بحارم الفرنج واستدعاهم إليه مُطمعا لهم في الاستيلاء على حارم، بشرط أن يعصموه من الملك الناصر. وعلم الأجناد بقلعة حارم بما عزم عليه، فآمروا بينهم في القبض عليه. وكان هذا الوالى ينزل من القلعة ويصعد إليها في أموره ولذاته؛ فاتفق أنه نزل منها لبعض شأنه فوثب أهل القلعة لما خرج، وأغلقوا بابها، ونادوا بشعار السلطان. وكان السلطان راسل والى حارم وبذل له في تسليم حارم إليه أشياء كثيرة منها: ولاية بصرى، وضيعة في دمشق يملكه إياها، ودار العقيقى التى كان نجم الدين أيوب والد السلطان يسكنها، وحمّام العقيقى بدمشق، وثلاثون ألف دينار عينا، ولأخيه عشرة آلاف دينار. فاشتطّ في السؤم، وتعالى في العوض؛ فأنفذ إليه السلطان وتوعده، وتهدده فكاتب الفرنج يطلب نجلتهم. وقيل إن نقيب القلعة أراد أن تنفق سوقه عند السلطان ويتحصّل منه شيئا، فكاتب على الوالى، فكتب إليه السلطان بتسيم ذلك، ووعدته بأشياء سكن إليها، وجرى الأمر على ما ذكرناه من إغلاق الباب في وجه الوالى.

وقيل إن النقيب وأهل القلعة لما أغلقوا الباب في وجهه شنعوا عليه بمكاتبة الفرنج ولم يكن فعل ذلك، إقامة لعذرهم، وقذفوه بالحجارة و نادوا بشعار السلطان. ولما اتصل بالسلطان هذه الأحوال أنفذ «تقى الدين» إلى حارم ليتسلمها، فامتنع النقيب وأهل القلعة من تسليمها إليه، فرحل السلطان إليها بنفسه جريده. فلما أشرف عليها نزل إليه النقيب

(١) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص ٢٢٦؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٦٣. وانظر أيضا: ابن شداد: التوادر السلطانية، ص ٦٠؛ ابن العديم: المصدر السابق، ج ٣، ص ٧٠؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٤٦-١٤٧؛ التويري: المصدر السابق، ج ٢٨، ص ٣٨٥.

ووجوه القلعيين، وسلموها إليه في «تاسع عشر»^(١) صفر.

ولما حضروا عند السلطان حدثوه بكيفية الحال، وكان «بدر الدين حسن بن الداية» حاضراً، فقال للسلطان: يا مولانا لا تلتفت إلى هؤلاء فإنهم آذوا هذا الوالي وكذبوا عليه، حتى فوّثوه ما كان السلطان وعده به؛ وما قلّك هذا إلا عن تجربة، فإنني لما كنت متولياً لهذه القلعة جرى عكسي من كذبهم في حقي وتحريضهم على أمور كدّت بها أهلك مع نور الدين؛ وهم كانوا سبب خروجي من هذه القلعة، وأنا أرى أن السلطان يُقرهم في القلعة على هذه التجربة، فضحك السلطان وأمر لهم بما كان وعدهم به، وأفضل عليهم، وولى في القلعة غيرهم وقال لابن الداية: إن بين أيدينا أمكنة نريد أخذها، ومتى لم نَفِ بِمَا نَعُدُّ ونجزل العطاء لم يثق بنا أحد وبات السلطان بقلعة حارم ليلتين^(٢).

ثم عاد السلطان صلاح الدين إلى حلب، وقام بتنظيم الإدارة بها. وقد أمدنا العماد الأصفهاني بأسماء معظم ولاة الأمور فيها، فذكر تعيين الملك الظاهر بن السلطان صلاح الدين واليا عليها، كما أورد أسماء ولاة القلعة والديوان والقضاء^(٣). واتفق ابن أبي طي مع العماد الأصفهاني فيما ذكره عن ولاة الأمور في حلب، كما أضاف بعض التفاصيل الأخرى عن الملك الظاهر وتقدير النفقة التي أقرها له والده، وأسماء باقى ولاة الأمور في حلب.

قال ابن أبي طي: «وعاد (السلطان صلاح الدين) إلى حلب في ثالث ربيع الأول فرتبها، وقرر ولده «الظاهر» سلطاناً بها، وقرر له في كل شهر أربعة آلاف درهم وعشرين

(١) لم يكن ابن أبي طي دقيقاً في كتابة هذا التاريخ، حيث كان السلطان صلاح الدين تسلم حارم - كما ذكر ابن شداد - في التاسع والعشرين من شهر صفر. ونرجح أن هذا الخطأ الذي وقع فيه ابن أبي طي حدث سهواً أثناء الكتابة، حيث ذكر ابن أبي طي بعد ذلك أن صلاح الدين ظل في حارم لمدة ليلتين، وأنه عاد إلى حلب في الثالث من ربيع الأول، وهذا يوضح أنه كان مدركا أن ملك صلاح الدين حارم كان في آخر صفر. (ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٦٠؛ أبو شامة: الروضتين، ج ٢، ق ١، ص ١٥٠).

(٢) أبو شامة: المصدر السابق، ج ٢، ق ١، ص ١٤٩ - ١٥٠.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٢٨. وانظر أيضاً: ابن العديم: المصدر السابق، ج ٣، ص ٧١ - ٧٢.

كمة وبقاء وما يحتاج إليه من الطعام وغيره، وجعل معه واليا «سيف الدين أركش الأسدي»^(١)، وولى «حسام الدين تميرك الخليفتي» شحنة حلب، وولى الديوان «ناصر الدين إسماعيل بن العميد الدمشقي» ودار الضرب، فضرب الدرهم الناصري الذي سكته خاتم سليمان، ونقل الخطابة من «بني العديم»^(٢) إلى «أبي البركات بن الخطيب هاشم» بسفارة القاضي الفاضل؛ وولى القضاء «لمحي الدين ابن زكي الدين»^(٣)، فاستتاب فيه ابن عمته «أبا البيان نبأ بن البانياسي»^(٤) وولى الجامع والوقوف «لأبي علي بن العجمي»^(٥).

ولم تستمر ولاية الملك الظاهر ابن السلطان صلاح الدين لحلب سوى ستة أشهر، حيث قرر صلاح الدين تعيين أخيه الملك العادل في ولاية حلب. وقد ذكر العماد الأصفهاني أن صلاح الدين اتخذ هذا القرار استجابة لرغبة الملك العادل، الذي كان قد راسله وطلب منه ولاية حلب، فوافق صلاح الدين، وطلب منه مغادرة مصر فترك الملك العادل نيابته لمصر وخرج إلى الشام ومعه أسرته وأمواله، وولاه صلاح الدين حلب في رمضان عام ٥٧٩ هـ / ١١٨٤ م^(٦).

(١) هو سيف الدين يازكج الأسدي: من أمراء السلطان صلاح الدين، كان مشاركاً معه أثناء حصار قلعة عزاز في عام ٥٧١ هـ / ١١٧٦ م، وقام بحماية السلطان من هجمات الإسماعيلية. استمرت ولايته لقلعة حلب بضعة أشهر، ثم عزل منها عند تولي الملك العادل حلب في رمضان عام ٥٧٩ هـ / ١١٨٤ م (ابن العديم: زبدة الحلب، ج ٣، ص ٢٩، ٧٥).

(٢) كان «أبو المعالي بن العديم» عم المؤرخ ابن العديم آخر من تولي الخطابة من بني العديم، وهم كانوا على المذهب الحنفي، وأوضح ابن العديم أن نقل الخطابة إلى المذهب الشافعي تم ببيعاز من الفقيه «عيسى الهكاري» الذي كان متعصباً للمذهب الشافعي. (زبدة الحلب، ج ٣، ص ٧١).

(٣) هو زين الدين أبا البيان نبأ بن البانياسي: ظل نائبا عن محيي الدين بن زكي الدين في قضاء حلب حتى عام ٥٩٠ هـ / ١١٩٤ م. (المصدر نفسه، ص ١٣٢).

(٤) أبو شامة: المصدر السابق، ج ٢، ق ١، ص ١٥٠.

(٥) المصدر السابق، ص ٢٣٣. وانظر أيضا: ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٦٤؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٥٢.

وقد اهتم ابن أبي طي في روايته عن ولاية الملك العادل حلب ببحث الأسباب التي دفعت السلطان صلاح الدين إلى تعيين أخيه بدلا من ابنه الملك الظاهر، وقد تحدث ابن أبي طي في ذلك مع كثير من الأشخاص المعاصرين لتلك الأحداث، وذكر من بينهم: «جمال الدين قاضي اليمن»، و«والده أبو طي النجار»، و«علم الدين قيصر الصلاحي»، فأكد له قاضي اليمن، ووالده، أن السلطان صلاح الدين كان بحاجة إلى وجود الملك العادل بالقرب منه لأنه كان يتم برأيه كثيرا، ويحتاج إلى مشورته، ولكن بقاء العادل في مصر كان يؤخر وصول رده على رسائله لبعده المسافة بين مصر والشام. وقد عرضنا من قبل أثناء ذكر كتابات ابن أبي طي عن الدولة الأيوبية في مصر رواية ابن أبي طي التي توضح هذا الرأي، ولاداعي لتكرار نص روايته مرة أخرى^(١).

ثم تطرق ابن أبي طي بعد ذلك إلى توضيح الآراء التي قيلت حول توقيت اتخاذ صلاح الدين قراره بولاية العادل حلب، فقال: «وحدثني أبي..... ولما حصل العادل عند السلطان وقع في نفسه أن يعوضه عن ولاية مصر ثم حار في ولاية يوليه إياها. ثم قال: وحدثني «علم الدين قيصر الصلاحي» قال: إنما أقدم السلطان العادل من مصر لأجل ولاية حلب، وبذلك كاتبه، ولهذا {أخرج} العادل بأمواله وعياله وأثقاله»^(٢).

ومن الآراء الأخرى التي قيلت حول أسباب ولاية الملك العادل حلب، رأيا ذكره المؤرخ «ابن العديم»، أوضح فيه أن حاجة السلطان صلاح الدين لأموال العادل كانت وراء قرار تعيينه في ولاية حلب، وإن العادل دفع في مقابل ذلك ثلاثمائة ألف دينار مصرية، ولكن «العماد الأصفهاني» ذكر ما يشكك في صحة هذا الرأي، حيث أوضح أن الملك العادل كان أثناء نيابته في مصر يمد السلطان صلاح الدين بحاجته من المال والرجال والأرزاق^(٣)، ولذلك أصبح ربط ولاية العادل حلب بحاجة صلاح الدين إلى أمواله أمرا مستبعدا لأنه

(١) أبو شامة: المصدر السابق، ج ٢، ق ١، ص ١٦٧.

(٢) في طبعة: «دار الجيل». «أخرج». (أبو شامة: الروضتين، ج ٢، ص ٥٢).

(٣) المصدر نفسه، ج ٢، ق ١، ص ١٦٧-١٦٨ (طبعة دار الكتب).

(٤) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص ٢٢٣؛ ابن العديم: المصدر السابق، ج ٣، ص ٧٥.

يُحصل عليه بالفعل عند حاجته إليه.

وقد أوضح ابن أبي طي حقيقة ما قيل حول هذا الرأي، فقال: «وحدثني غيره قال: لما حصل العادل عند السلطان بأمواله وأثقاله كانت الأموال قد قلت على السلطان، وقد حصلت عنده عساكر عظيمة، فأحضر العادل ليلاً وقال: أريد أن تقرضني مائة وخمسين ألف دينار إلى الميسور؛ فقال: السمع والطاعة. ثم قام وخرج من عنده وكتب إليه يقول: أموالى جميعها بين يديك، وأنا مملوكك، وأشتهى أن أحمل هذا المال إلى خدمة السلطان، ويكون عوضاً عنه مدينة حلب وقلعتها. فأجابه السلطان: إننى والله ما أقدمتُك إلا لأوليك حلب؛ وإذا قد اقترحت ذلك فقد وافق ما عندى.

فلما أصبح العادل أنفذ وسأل السلطان أن يكتب له بمدينة حلب كتاباً، ويجعله ككتاب البيع والشراء فامتنع السلطان، وقال: إنما تكون حلب إقطاعاً، والمال على له. فاعتذر العادل إلى السلطان. ولما اجتمعا قال له السلطان: أظننت أن البلاد تباع! أو ما علمت أن البلاد لأهلها المرابطين بها، ونحن خزانة للمسلمين ورعاةً للدين، وحرّاس لأموالهم! أو ما علمت أن السلطان «ملك شاه السلجوقي»^(١) لما وقف «طبرية» على جامع خراسان لم يحكم به أحد من القضاء ولا من الفقهاء. ثم قرر السلطان ولاية العادل لحلب وأعمالها إلى رعبان إلى الفرات إلى حماة وكتب له التوقيع، وقرر عليه ما لا يحمله برسم {الزردخانة}^(٢) وخزانة الجهاد، ورجالة من الحلبيين^(٣).

(١) هو جلال الدولة أبي الفتح ملكشاه محمد بن السلطان ألب أرسلان بن سلجوق: ولد في جمادى الأولى عام ٤٤٧ هـ / ١٠٨٤ م، تولى السلطنة بعد وفاة والده في ربيع الأول عام ٤٦٥ هـ / ١٠٧٢ م. كان من أكثر الملوك عدلاً، ولهذا كان يعرف بالسلطان العادل، ولذا لا نستبعد ما رواه عنه ابن أبي طي، وتوفي ملكشاه في شوال ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م. (العهد الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٤٧، ٥٠، ٧٠ (اختصار البنداري)؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج ٢، ص ١٠٦).

(٢) في «طبعة دار الجليل»: «الزردخانات» (أبو شامة: الروضتين، ج ٢، ص ٥٢). والمقصود بها خزانة السلاح. (القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١١).

(٣) أبو شامة: المصدر السابق، ج ٢، ق ١، ص ١٦٨ (طبعة دار الكتب).

وهكذا استقر الملك العادل في ولاية حلب، أما بالنسبة لموقف الملك الظاهر بعد عزله منها، فقد ذكر المؤرخ «ابن شداد» أنه: «أقام في خدمة أبيه لا يظهر له إلا الطاعة و الانقياد مع انكسار في باطنه لا يخفى عن نظر والده»^(١).

وقد أكد ذلك أيضا ابن أبي طي، كما أضاف بعض التفاصيل الأخرى التي توضح أسباب ضيق الملك الظاهر من قرار عزله من ولاية حلب، فقال: «ورحل السلطان إلى دمشق واستدعى ولده الظاهر من حلب، فلما {حضره}»^(٢) أمره بالعود إلى حلب و تسليمها إلى عمه العادل ففعل، وعاد إلى دمشق، وسار العادل إلى حلب فالتقيا «بالرستين» وباتا فيه. فكانت ولاية الظاهر بحلب في هذه النوبة، نحو ستة أشهر. ولما وصل الظاهر إلى دمشق أقبل على خدمة والده و التقرب إليه، إلا أن الانكسار لخروج حلب عنه ظاهر عليه، وهو مع ذلك لا يظهر شيئا إلا الطاعة لو والده، و {الانقباض}»^(٣) إلى مرضاته.

ثم قال: حدثني «أبي» عن «مجد الدين بن الخشاب» قال: حدثني الملك الظاهر قال: لما بلغني أن السلطان أعطى حلب للملك العادل جرى على ما قدم وما حدث، وأصابني من الهم ما لم أقدر على النهوض به، ووددت أني لم أكن رأيتها ولا دخلت إليها، لأن قلبي أحبها وقبلها، وطاب لي هواؤها؛ ولما فارقتها كنتُ أحنُّ إليها وأشتاقها»^(٤).

ويعد استقرار الملك العادل في حلب قام باختيار من يعاونه في إدارتها، وقد أمدنا ابن أبي طي بأسماء بعض ولاة الأمور بها، فقال: «ودخل العادل حلب في رمضان، وخلع على المقدمين و الأعيان. وكان قد قدم بين يديه كاتبه المعروف «بالصنّعة» لتسلم حلب وقلعتها من الملك الظاهر، وولى القلعة «صارم الدين بزغش»؛ و ولى الديوان والإقطاعات

(١) النوادر السلطانية، ص ٦٤. وانظر أيضا: ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٥٣؛ ابن كثير: المصدر السابق، ج ١٢، ص ٨٤٦.

(٢) في «طبعة دار الجليل»: «حضره» (أبو شامة: الروضتين، ج ٢، ص ٥٢).

(٣) في «طبعة دار الجليل»: «الانقياد» (المصدر نفسه و الصفحة).

(٤) المصدر نفسه، ج ٢، ق ١، ص ١٦٨-١٦٩ (طبعة دار الكتب).

«شجاع الدين بن البيضاوي»^(١) صباغ ذقته ؛ وولّى الإنشاء وما يتعلق بأمر السر «للصنيعة ابن النحل»، وكان نصرانيا ثم أسلم على يد العادل^(٢)

فولى «ابن النحل» الوظائف لجماعة من النصاري. وفي ذلك يقول الشاعر:

فأق دینُ المسیح فی دولة العا . . . دل، حتی علا علی الأديان

ذا أمیر وذا وزیر، وذا وا ل، وذا مُشرف علی الديوان^(٣)

ولم يقتصر دور الملك العادل على تدبير أمور حلب، بل أظهرت رواية ابن أبي طي أنه كان يشارك أخاه السلطان صلاح الدين الرأي في كثير من الأمور، وقد قام بذلك بعد فترة وجيزة من ولايته، حيث انتقل إلى أخيه السلطان صلاح الدين في دمشق، في آخر ذى القعدة عام ٥٧٩ هـ / ١١٨٤ م، وحضر معه اجتماعاته مع وفود رسل العديد من الدول والإمارات.

وقد انفرد ابن أبي طي بذكر تفاصيل حضور الملك العادل هذه الاجتماعات، وكان «العماد الأصفهاني» قد أشار إلى حضور العادل عند ذكره وصول رسول أمير حصن كيفا «نور الدين بن قرا أرسلان»، حيث أورد أن صلاح الدين طلب من العادل الإقامة معه لإيناسه^(٤)، كما ذكر ابن العديم وصول العادل إلى دمشق، ولم يوضح أسباب حضوره، وذكر أنه ظل هناك حتى انتهاء عيد الأضحى^(٥).

(١) هو شجاع الدين محمد بن بزغش البصراوي : ولاء العادل أيضا «الجند، و مستهداء الأموال، وشحنكية البلد. (ابن العديم : زبدة الحلب، ج ٣، ص ٧٥).

(٢) اتفقت رواية ابن العديم عن ولاة الأمور في حلب مع ما ذكره ابن أبي طي . (المصدر نفسه و الصفحة).

(٣) أبو شامة : المصدر السابق، ج ٢، ق ١، ص ١٦٩.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٤١.

(٥) المصدر السابق، ج ٣، ص ٧٨. وانظر أيضا : ابن واصل : المصدر السابق، ج ٢، ص ١٥٦.

وكان السلطان صلاح الدين قد اجتمع في ذلك الوقت مع رسل عدة دول وإمارات، وذكر منهم العماد الأصفهاني رسل الخلافة العباسية، ورسلكم الموصل عز الدين مسعود بن مودود، وأوضح المحاولة التي قام بها رسل الخلافة لعقد الصلح بين صلاح الدين وعز الدين مسعود، ولكن باءت جهودهم بالفشل^(١) كما أورد أيضا وصول رسول «عماد الدين زنكي» أمير سنجان^(٢).

وقد أشار ابن أبي طي إلى هؤلاء الرسل، وانفرد بذكر وصول رسل العديد من البلاد الأخرى، فقال: «ولم يزل الملك العادل يُهذب أمور حلب إلى سادس عشرى ذى

القعدة، ثم خرج متوجها إلى دمشق، بسبب أن السلطان اجتمع عنده في ذى القعدة عدة رُسل منهم: رُسل الخليفة، ورُسل «طغرل بن بهلولان»^(٣) ورُسل «قزل أخى بهلولان»^(٤)، ورُسل «شاه أرمن»^(٥) صاحب خلاط، ورُسل الموصل، ورُسل «عماد الدين» صاحب سنجان، ورُسل «قليج أرسلان» صاحب الشمال. فأراد السلطان إحضار العادل لسماح الرسائل ولحضور الأجوبة عنها ولتقرير أمور الفرنج، ويوم وصل العادل إلى دمشق أحضره السلطان لسماح الرسائل، وسمع ما عنده في الأجوبة. ولما قضى أجوبة

(١) وصل من جهة الخليفة العباسي الناصر لدين الله: شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم بن إسماعيل، وبشير الخادم، ومن الموصل القاضي محمى الدين بن الشهرزوري، والقاضي بهاء الدين بن شداد. (العماد الأصفهاني: سنا البرق، ص ٢٣٥-٢٣٧؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٦٣-١٦٤؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج ٣، ص ٧٦-٧٧).

(٢) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص ٢٣٩.

(٣) هو الأتابك شمس الدين محمد بن بهلولان بن إيلدكز: حاكم أذربيجان وهمذان وبلاد الجبل، توفي في عام ٥٨١ هـ / ١١٨٦-٨٥ م. (ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٦٥، ١٦٩؛ العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٤، ٢٦٩).

(٤) خلف أخاه شمس الدين بن بهلولان في ولاية أملاكه بعد وفاته في عام ٥٨١ هـ / ١١٨٦-٨٥ م. (العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٤، ٢٦٩).

(٥) توفي في ربيع الآخر عام ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م. (ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٦٨).

الرسول ودع السلطان وعاد إلى حلب»^(١).

وقد كانت رواية ابن أبي طي عن حضور الملك العادل اجتماعات السلطان صلاح الدين في دمشق آخر ما وصلنا من كتاباته عن أحوال الدولة الأيوبية في الشام في عام ٥٧٩ هـ / ٨٣ - ١١٨٤ م. وكان هذا العام من الأعوام المهمة في تاريخ الدولة الأيوبية حيث واصل فيه السلطان صلاح الدين توسعاته في بلاد الجزيرة، فملك مدينة «آمد» في بداية هذا العام، ثم اتجه نحو حلب، فملك «تل خالد»، وقد كانت كتابات العماد الأصفهاني عن هذه الفتوحات أساسا مهما اعتمد عليه ابن أبي طي عند كتاباته لهذه الأحداث.

ثم بسط السلطان صلاح الدين سيطرته على مدينة حلب في منتصف صفر من السنة وانفرد ابن أبي طي بمعظم تفاصيل ملكه لها، والإجراءات الإدارية التي أقامها فيها ومن ذلك إسناد ولايتها إلى ابنه الملك الظاهر، ثم عزله منها بعد ستة أشهر، وإسناد ولايتها لأخيه الملك العادل.

كما ملك أيضا السلطان صلاح الدين حصن حارم في آخر صفر في هذا العام، وانفرد ابن أبي طي أيضا بمعظم تفاصيل ملكه له.

وقد كانت كتابات ابن أبي طي عن أحداث هذا العام أساسا لبعض المؤرخين اللاحقين به، فقد لاحظنا اتفاق المؤرخ ابن العديم معه في بعض أحداث ملك السلطان صلاح الدين حلب، كما لاحظنا أيضا اتفاق المؤرخ ابن كثير معه في بعض أحداث ملك صلاح الدين آمد وحلب.

وتبقى لدينا من كتابات ابن أبي طي عن تاريخ الدولة الأيوبية في الشام في عهد السلطان صلاح الدين حادثان، تناول فيهما بعض الرؤى التي تنبئ ببطولة السلطان صلاح الدين، وانتصاراته العظيمة على الصليبيين، وقد اهتم كثير من المؤرخين بذكر مثل هذه

(١) أبو شامة: المصدر السابق، ج ٢، ق ١، ص ١٦٩ - ١٧٠.

الرؤى على سبيل الفأل الحسن.

وكانت الرؤية الأولى التي ذكرها تنبئ بانتصار السلطان صلاح الدين في موقعة حطين عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م، وقد أورد ابن أبي طي هذه الرؤية عن والده، فقال: «حدثني والدي {حميد النجار}»^(١) {عن أحد التجار}»^(٢) قال: كنت بالموصل في سنة خمس وخمسين وخمسمائة فزرت الشيخ عمر الملاء فدخل إليه رجل فقال: أيها الشيخ، رأيت البارحة في النوم كأنى بأرض غربية لا أعرفها، وكأنها مملوءة بالخنازير، وكان رجلا بيده سيف وهو يقتل الخنازير والناس ينظرون إليه ؛ فقلت لرجل: هذا عيسى بن مريم ؟ هذا المهدي ؟ قال: لا فقلت: من هذا ؟ قال هذا «يوسف». ما زادني على ذلك. قال: فتعجب الجماعة من هذه الرؤيا وقالوا: إنه سيقتل النصارى رجل يقال له «يوسف» ؛ وحدثت الجماعة أنه «يوسف بن عبد المؤمن» صاحب المغرب، و كان «المستنجد بالله» قد ولى الخلافة تلك السنة، فحدث بعض الجماعة عليه. قال: وآتسبُت هذه الواقعة. فلما كانت سنة كسرة حطين ذكرتها فكان يوسف الملك الناصر رحمه الله»^(٣).

أما الرؤية الثانية فقد حدثت ابن أبي طي بها إحدى النساء في حلب، وكانت على صلة بأخت السلطان صلاح الدين، فقال: «وحدثتني «ظثري»»^(٤) من نساء الحلبيين كانت تداخل أخت السلطان الملك الناصر، قالت: كانت والدة السلطان تخبر أنها آتيت في نومها وهى حامل بالسلطان فقيل لها إن في بطنك سيفاً من سيوف الله تعالى»^(٥).

(١) إضافة في طبعة دار الكتب . (أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٢٧٧) .

(٢) ساقطة من طبعة دار الكتب . (المصدر نفسه و الصفحة ؛ طبعة دار الجليل ، ج ٢ ، ص ٨٥) .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٢٧٧ .

(٤) الظثر في اللغة : المرصعة غير ولدها . (ابن منظور : لسان العرب ، ج ٨ ، ص ٢٤٥) ، ولا ندرى أن

كان ابن أبي طي قصد معناها اللغوي ، أم كان هذا اسم السيدة التي تحدث معها ، والأقرب أنه اسم هذه السيدة ، لأنه لو قصد معناها اللغوي لكان ذكر ظثر من نساء الحلبيين فقط .

(٥) المصدر السابق ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٢٧٧ .

وقد تحققت هذه الرؤية وصار السلطان صلاح الدين بطلا عظيما، وسطرت بطولاته في انتصاراته على الصليبيين في موقعة حطين وغيرها من المعارك في سجل التاريخ، ولهذا اهتم ابن أبي طي به وأرخ باسمه كتابا سجل فيه سيرته، بدأها بتتبع جذور عائلته ونشأتها وعلاقتها مع الدولة الأتابكية، ثم أوضح تطور أحوال السلطان صلاح الدين منذ اشتراكه في حملات عمه أسد الدين شيركوه على مصر في آخر عشر سنوات من حكم الخلافة الفاطمية، حتى تأسيسه الدولة الأيوبية ثم تناول أهم الانتصارات التي حققها في سبيل تحقيق الوحدة الإسلامية.

وقد كانت هذه الأحداث آخر ما وجدناه من صفحات هذا الكتاب، ولعلنا نكون قد أظهرنا هذه الصفحات بصورة توضح جهد ومكانة المؤرخ ابن أبي طي الحلبي بين المؤرخين المعاصرين له في النصف الأول من القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي.

ووصلنا أيضا من كتابات ابن أبي طي عن عهد السلطان صلاح الدين، معلومة أخرى عن أحداث عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م، وهي لا تتعلق مباشرة بالسلطان صلاح الدين، وإنما بإمارة أنطاكية الصليبية في ذلك الوقت.

وقد أمدنا بها المؤرخ «عز الدين بن شداد» عن ابن أبي طي، فقال: «ورأيت في تاريخ ابن أبي طي: «وفي سنة ثلاث وثمانين وخمسة مائة صاحب انطاكية»، وأوصى إلى ابن أخته «ريمند»^(١).

وقد بحثنا في مدى صحة ما أورده عز الدين بن شداد عن ابن أبي طي، ووجدنا أن هذه الرواية لا أساس لها من الصحة، حيث ظل الأمير «بوهيمند الثالث» في حكم إمارة أنطاكية منذ عام ١١٦٣ م / ٥٥٨ هـ حتى عام ١٢٠١ م / ٥٩٧ هـ^(٢)، وإنما الذي توفي في ذلك العام هو «ابن لاون» ملك الأرمن، وأوصى لابن أخيه من بعده، وكان بهاء الدين بن

(١) الأعلام الخطيرة، ج ١، ق ٢، ص ٣٩٨.

(٢) حسين عطية: إمارة أنطاكية، ص ٥٢٦.

شدداد قد أورد عند ذكره لحادثة استدعاء صلاح الدين القوات الإسلامية من مختلف البلاد التابعة له لغزو حصن الكرك في عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م، أن القوات الحلبية تأخرت عليه: «بسبب اشتغالها بالإفرنج بأرض أنطاكية من بلاد «ابن لاون»، وذلك أنه كان قد مات، ووصى لابن أخيه الملعون بالملك»^(١)، ولعل ابن أبي طي اختلط عليه الأمر بسبب ذكر أنطاكية في الحادثة.

ثانياً - كتابات ابن أبي طي عن عهد الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين:

تولى الملك الظاهر حلب منذ عام ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م حتى وفاته في جمادى الآخرة عام ٦١٣ هـ / ١٢١٦ م، وقد وصلنا من كتابات ابن أبي طي عن عهده موضوعان، تعلق الأول بالتاريخ السياسي الخارجي لحلب، وتناول فيه علاقة حلب مع إمارة أنطاكية الصليبية، أما الموضوع الثاني فتناول فيه جانباً من تاريخ حلب الاقتصادي في عهده.

١ - علاقة حلب مع إمارة أنطاكية:

اتسمت العلاقات الخارجية بين حلب وإمارة أنطاكية بالعداء منذ قيام الإمارة في العقد الأخير من القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي، وقد عرضنا جانباً من سجل الصراع بينهما من خلال كتابات ابن أبي طي عن تاريخ الدولة الأتابكية، وبعد مرور قرن من الصراع بينهما، بدأت العلاقات بينهما تأخذ شكلاً آخر، وأصبح الملك الظاهر في حلب يساند الأمير بوهيمند الرابع (١٢٠١-١٢١٦ م / ٥٩٧-٦١٣ هـ) ضد أعدائه من الأرمن، وقد أمدنا ابن أبي طي برواية توضح هذا التحول المهم في العلاقة بينهما، وقبل عرض نص روايته نقدم نبذة عن أسباب تغير العلاقة بين حلب وأنطاكية.

ويرجع سبب ذلك إلى حاجة إمارة أنطاكية إلى المساعدة من أي قوى في صراعها مع

(١) النوادر ص ٧٤. وانظر أيضاً: ابن العديم: المصدر السابق، ج ٣، ص ٩١؛ ابن واصل: المصدر

السابق، ج ٢، ص ١٨٦.

الأرمن، خاصة بعد أن يشتت من وصول المساعدات العسكرية من أوروبا، بسبب تغيير استراتيجية الحروب الصليبية في القرن الثالث عشر الميلادي، السابع الهجري، عما كانت عليه في القرن الماضي، فبينما كانت الأهداف الفكرية والعسكرية للحملة الصليبية الأولى تهدف للوصول إلى بيت المقدس، أصبحت الأهداف تتركز في غزو مصر، أما الملك الظاهر فقد هدف من مساعده أنطاكية بإبعاد خطر الأرمن عن أنطاكية، خشية أن يزداد خطره بعد ذلك على حلب باستيلائه على أنطاكية^(١).

وقد تناول ابن أبي طي في روايته مثالا على التحالف بين حلب وأنطاكية في صراعها مع الأرمن في عام ٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ م، واتفق ابن واصل مع ابن أبي طي اتفاقا كبيرا فيما رواه من تفاصيل الخبر^(٢)، قال ابن أبي طي: «في سابع عشر ربيع الآخر هجم «ابن لاون» أنطاكية، فلم يشعر صاحبها إلا وهو على بابها، فارتاع لذلك، وقاتله في البلد، ثم التجأ إلى القلعة، وصاح بشعار الملك الظاهر بن الملك الناصر، فكتب والي حارم على جناح طائر إلى الملك الظاهر، فخرج بعساكره لنجدة البرنس، فلما وصل إلى حارم بلغ ابن لاون مسيره فخرج عن أنطاكية وترك فيها رجالا فقتلوا، وكتب الملك الظاهر لصاحبها بما يطيب به قلبه»^(٣).

٢- تاريخ حلب الاقتصادي:

اهتم ابن أبي طي في كتابه الذي خصصه لدراسة تاريخ حلب وهو بعنوان «عقود الجواهر في سيرة الملك الظاهر»، فضلا عن دراسة تاريخها السياسي، بدراسة تاريخها الاقتصادي أيضا، وقد حفظ ابن شداد من هذا الكتاب نصا مهما أورده عن ابن أبي طي، وفيه انفرد ابن أبي طي بتحديد ميزانية دخل حلب في عام ٦٠٩ هـ / ١٢١٢ - ١٢١٣ م،

(١) حين عطية: المرجع السابق، ص ٢٥١-٢٥٢، ٢٥٧.

(٢) المرجع السابق، ج ٣، ص ١٥٤-١٥٥.

(٣) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج ١، ق ٢، ص ٤٠٥-٤٠٦.

واعتمد في ذلك على «سجلات رسمية» وفرتها له علاقته مع «مستوفي»^(١) حلب، وهذه الرواية من الروايات المهمة التي تشير إلى علاقات ابن أبي طي بموظفي الإدارة في حلب.

قال ابن أبي طي: «حدثني «كريم الدولة بن شرارة النصراني»، وكان مستوفي دار حلب يومئذ، أنه عمل ارتفاع حلب سنة تسع وستمائة في الأيام الظاهرية دون البلاد الخارجة عنها، والضياح، والأعمال، فكان مبلغه ستة آلاف ألف، وتسعمائة ألف، وأربعة وثمانين ألف، وخمسمائة درهم»^(٢).

وبهذا النص انتهينا من جمع وتحليل كتابات ابن أبي طي عن تاريخ الدولة الأيوبية في بلاد الشام في عهد السلطان صلاح الدين، وعهد الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين.

(١) المستوفي: هو الذي يضبط الديوان، وينبه علي ما فيه مصلحته من استخراج أمواله ونحو ذلك.

(القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٦٦).

(٢) ابن شداد: الأعلام الخطيرة، ج ١، ق ١، ص ٣٥٧؛ ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص ١٤٦؛

نزهة النواظر، ص ١٤٤؛ الغزي: نهر الذهب، ج ١، ص ٢٦٨؛ شاكر مصطفى: التاريخ العربي

والمؤرخون، ج ٢، ص ٢٥٣.